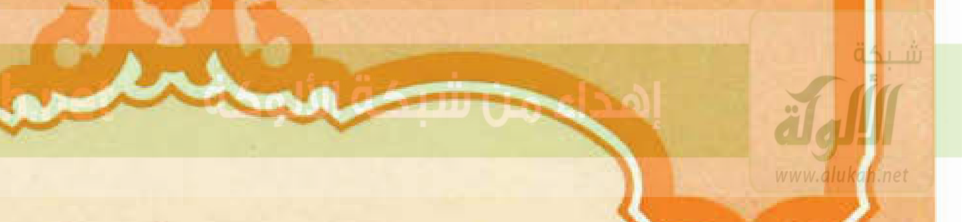


كتاب المعارف السنية

من كتب شمس الدين بن قيم الجوزية

بقلم جامعه
الفقير الى المنان
عبد الرحمن بن عبد العزيز بن محمد بن سحمان
القاضي بمحكمة التمييز بالرياض
غفر الله له ولوالديه آمين



بسم الله الرحمن الرحيم

إبتدأت في كتابة هذا الكتاب

يوم السبت الموافق ٥ / ٨ / ١٣٩١ هـ .

كتاب المعارف السنية
من كتب شمس الدين بن قيم الجوزية

بقلم جامعه

الفقير إلى المنان

عبد الرحمن بن عبد العزيز بن محمد بن سحمان

القاضي بمحكمة التمييز بالرياض

غفر الله له ولوالديه آمين





بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، وأشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له ، الملك الحق المبين ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله وخليله الصادق الأمين ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد، فقد عرف واشتهر لدى المحققين من العلماء ما لشمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي المعروف بابن قيم الجوزية ، رفع الله منزلته في الدرجة العلية ، من التحقيق والتدقيق في المسائل الشرعية ، واعتماده في ذلك على الأدلة النقلية والعقلية ، لذا جمعت من كتبه لي ولأبنائي ومن أحب ذلك من إخواني هذه البحوث العلمية ، من مهمات الراغب في سلوك الصراط المستقيم ، الموصل سالكه إلى جنات النعيم ، وإليك الإشارة إلى بعض هذه البحوث : كمال العبد الذي لا كمال له إلا به ، الطيب والخبيث وأعمال كل منها ومآله ، شهادة أن لا إلـه إلا الله ، معناها ، فضلها ، روحها وسرها ، تحقيقها ، القيام بها ، صفتها في القلب ، نعيم أهلها في الدنيا والآخرة ، منفعة الإقبال على الله ومضرة الإعراض عن ذلك ، الصراط المستقيم في الدنيا والآخرة ، الذنوب ، أصلها ، أقسامها ، عقوباتها ، علل القلب المهلكة في الدنيا والآخرة ، الدعاء ، نفعه ، أسباب إجابته ، الجمع بين الدعاء والقدر ، الأسباب التي يندفع بها شر الحاسد والعائن والساحر ، الأسباب التي يعتصم بها العبد من الشيطان ، الرحمة الحقيقية ، إمتحان الله الخلق بعضهم ببعض ، القواعد والأصول التي يرجع الدين كله اليها ، عدم إستغناء العبد عن الصبر في حال من الأحوال ، أشق الصبر على النفوس ، فضائل الصبر ، فضائل الشكر ،



حقيقة الصبر والشكر ، التحقيق في أيهما أفضل ، الحكمة في خلق الغنى والفقر والمال ، حقيقة الدنيا ، سفه من قدم الدنيا على الآخرة ، أمثلة للدنيا وأهلها ، التحذير من الإغترار بالدنيا ، والترغيب في دار البقاء .

وقد سميت هذا الكتاب : (المعارف السنية ، من كتب شمس الدين بن قيم الجوزية) وقد ذكرت في الحاشية عند إنتهاء كل بحث ، إسم الكتاب المنقول منه وليس لي فيه سوى الإختيار والإشارة إلى المقصود بالعنوان .

أسأل الله أن يجعل ذلك عونا لي ولمن قرأه وسمعه إلى الهداية إلى الصراط المستقيم ، إنه ولي ذلك والقادر عليه ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

جامع الكتاب

عبد الرحمن بن عبد العزيز بن محمد بن سحمان

عفا الله عنه بمنه وكرمه



كمال العبد الذي لا كمال له إلا به

آلله سبحانه وتعالى خلق الخلق لعبادته الجامعة لمحبته وإيثار مرضاته ، المستلزمة لمعرفته ، ونصب للعباد علما لا كمال لهم إلا به .

وهو : أن تكون حركاتهم كلها موافقة على وفق مرضاته ومحبته ، ولذلك أرسل رسله وأنزل كتبه ، وشرع شرائعه ، فكمال العبد الذي لا كمال له إلا به ، أن تكون حركاته موافقة لما يحبه آلله منه ويرضاه له . ولهذا جعل إتباع رسوله ﷺ دليلا على محبته . قال تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون آلله فاتبعوني يحببكم آلله ويغفر لكم ذنوبكم وآلله غفور رحيم ﴾ . فالمحب الصادق يرى خيانة منه لمحبوبه إن يتحرك بتحركة إختيارية في غير مرضاته ، وإذا فعل فعلا مما أبيح له بموجب طبيعته وشهوته تاب منه كما يتوب من الذنوب، ولا يزال هذا الأمر يقوى عنده حتى تنقلب بها مباحاته كلها طاعات ، فيحتسب نومه وفطره وراحته كما يحتسب قومته وصومه واجتهاده ، وهو دائما بين سراء يشكر آلله عليها ، وضراء يصبر عليها ، فهو سائر إلى آلله تعالى دائما في نومه ويقظته . قال بعض العلماء : الأكياس عاداتهم عبادات الحمقى والحمقى عباداتهم عادات . وقال بعض السلف : حبذا نوم الأكياس وفطرهم يغبنون به سهر الحمقى وصومهم . فالمحب الصادق : إن نطق نطق لله وبآلله ، وإن سكت سكت لله وإن تحرك فبأمر آلله ، وإن سكن فسكونه إستعانة على مرضات آلله فهو لله وبآلله ومع آلله .

ومعلوم أن صاحب هذا المقام ، أحوج خلق آلله إلى العلم ، فإنه لا تتميز له الحركة المحبوبة لله من غيرها ولا السكون المحبوب لله من غيره إلا بالعلم . فليست حاجته إلى العلم كحاجة من طلب العلم لذاته ، ولأنه في

نفسه صفة كمال ، بل حاجته إليه كحاجته إلى ما به قوام نفسه وذاته . ولهذا إشتدت وصاة شيوخ العارفين لمريديهم بالعلم وطلبه ، وإنه من لم يطلب العلم لم يفلح ، حتى كانوا يعدون من لا علم له من السفلة .

قال ذو النون وقد سئل مَن السفلة فقال : من لم يعرف الطريق إلى آلله ولا يتعرفه . وقال أبو يزيد : لو نظرتم إلى الرجل وقد أعطي من الكرامات حتى يتربع في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود ومعرفة الشريعة . وقال أبو حمزة البزازي : من علم طريق الحق سهل عليه سلوكه ، ولا دليل على الطريقة إلا متابعة الرسول في أقواله وأفعاله وأحواله . وقال محمد بن الفضل الصوفي الزاهد : ذهاب الإسلام على يدي أربعة أصناف من الناس : صنف لا يعملون بما يعلمون ، وصنف يعملون بما لا يعلمون ، وصنف لا يعملون ولا يعلمون ، وصنف يمنعون الناس من التعلم .

قلت : الصنف الأول: من له علم بلا عمل ، فهو أضر شيء على العامة ، فإنه حجة لهم في كل نقيصة ومخسة .

والصنف الثاني : العابد الجاهل ، فإن الناس يحسنون الظن به لعبادته وصلاحه فيقتدون به على جهله . وهذان الصنفان همااللذان ذكرهما بعض السلف في قوله : إحذروا فتنة العالم الفاجر ، والعابد الجاهل فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون ، فإن الناس إنما يقتدون بعلمائهم وعبادهم ، فإذا كان العلماء فجرة ، والعباد جهلة ، عمت المصيبة بهما ، وعظمت الفتنة على الخاصة والعامة .

والصنف الثالث : الذين لا علم لهم ولا عمل ، وانما هم كالأنعام السائمة .

والصنف الرابع : نواب إبليس في الأرض ، وهم الذين يثبطون الناس عن

طلب العلم والتفقه في الدين ، فهؤلآء أضر عليهم من شياطين الجن ، فإنهم يحولون بين القلوب وبين هدى آلله وطريقه .

فهؤلآء الأربعة الأصناف ، هم الذين ذكرهم هذا العارف رحمة آلله عليه وهؤلآء كلهم على شفا جرف هار ، وعلى سبيل الهلكة ، وما يلقى العالم الداعي إلى آلله ورسوله ما يلقاه من الأذى والمحاربة إلا على أيديهم وآلله يستعمل من يشاء في سخطه ، كما يستعمل من يشاء في مرضاته إنه بعباده خبير بصير .

ولا ينكشف سر هذه الطوائف وطريقتهم إلا بالعلم ، فعاد الخير بحذافيره في العلم وموجبه ، والشر بحذافيره إلى الجهل وموجبه .[1]

السعيد الطيب ، والشقي الخبيث ، وعمل كل منهما ومآله

آلله سبحانه وتعالى إختار من كل جنس من أجناس المخلوقات أطيبه . واختصه لنفسه وارتضاه دون غيره ، فإنه تعالى طيب لا يحب إلا الطيب ، ولا يقبل من العمل والكلام والصدقة إلا الطيب ، فالطيب من كل شيء هو مختاره تعالى ، وأما خلقه تعالى فعام للنوعين . وبهذا يعلم عنوان سعادة العبد وشقائه ، فإن الطيب لا يناسبه إلا الطيب ولا يرضى إلا به ، ولا يسكن إلا إليه ، ولا يطمئن قلبه إلا به ، فله من الكلم الطيب الذي لا يصعد إلى آلله تعالى إلا هو ، وهو أشد شيء نفرة عن الفحش في المقال ، والتفحش في اللسان والبذاء ، والكذب والغيبة والنميمة والبهت وقول الزور ، وكل كلام

(١) من مفتاح دار السعادة .



خبيث . وكذلك لا يألف من الأعمال إلا أطيبها وهي الأعمال التي اجتمعت على حسنها الفطر السليمة مع الشرائع النبوية ، وزكتها العقول الصحيحة . فاتفق على حسنها الشرع والعقل والفطرة ، مثل أن يعبد آلله وحده لا يشرك به شيئا ، ويؤثر مرضاته على هواه ، ويتحبب إليه جهده وطاقته ، ويحسن إلى خلقه ما استطاع ، فيفعل بهم ما يحب أن يفعلوه به ، ويعاملهم بما يحب أن يعاملوه به ، ويدعهم مما يحب أن يدعوه منه ، وينصحهم لما ينصح به نفسه ، ويحكم لهم بما يحب أن يحكم له به ، ويحمل أذاهم ولا يحملهم أذاه ، ويكف عن إعراضهم ولا يقابلهم بمثل ما نالوا من عرضه ، وإذا رأى لهم حسنا أذاعه وإذا رأى لهم سيئا كتمه ، ويقيم أعذارهم ما استطاع فيما لا يبطل شريعة ، ولا يناقض لله أمرا ولا نهيا . وله أيضا من الاخلاق أطيبها وأزكاها ، كالحلم والوقار والسكينة ، والرحمة والصبر والوفاء ، وسهولة الجانب ولين العريكة والصدق ، وسلامة الصدر من الغل والغش والحقد والحسد ، والتواضع وخفض الجناح لأهل الإيمان ، والعزة والغلظة على أعداء آلله وصيانة الوجه عن بذله وتذلُّله لغير آلله ، والعفة والشجاعة والسخاء والمروءة . وكل خلق اتفقت على حسنه الشرائع والفطر والعقول .

وكذلك لا يختار من المطاعم إلا أطيبها ، وهو الحلال الهنيء المريء الذي يغذي البدن والروح أحسن تغذية ، مع سلامة العبد من تبعته . وكذلك لا يختار من المناكح إلا أطيبها وأزكاها . ومن الرائحة إلا أطيبها وأزكاها . ومن الأصحاب والعشراء إلا الطيبين منهم . فروحه طيب ، وبدنه طيب ، وخلقه طيب ، وعمله طيب ، وكلامه طيب ، ومطعمه طيب ، ومشربه طيب ، وملبسه طيب ، ومنكحه طيب ، ومدخله طيب ، ومخرجه طيب ، ومنقلبه طيب ، ومثواه كله طيب .



فهذا ممن قال ٱللَّه تعالى فيه ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم أدخلوا الجنة بما كنتم تعملون ﴾ ومن الذين يقول لهم خزنة الجنة ﴿ سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ﴾ وهذه الفاء تقتضي السببية ، أي بسبب طيبكم أدخلوها . وقال تعالى ﴿ الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات ﴾ وقد فسرت الآية بأن الكلمات الخبيثات للخبيثين ، والكلمات الطيبات للطيبين ، وفسرت بأن النساء الطيبات للرجال الطيبين ، والنساء الخبيثات للرجال الخبيثين . وهي تعم ذلك وغيره فالكلمات والأعمال والنساء الطيبات لمناسبها من الطيبين والكلمات والأعمال والنساء الخبيثات لمناسبها من الخبيثين . وٱللَّه سبحانه وتعالى جعل الطيب بحذافيره في الجنة ، وجعل الخبيث بحذافيره في النار . فجعل الدور ثلاثة :

دارا أخلصت للطيبين ، وهي حرام على غير الطيبين . وقد جمعت كل طيب ، وهي الجنة .

ودارا أخلصت للخبيثين والخبائث ، ولا يدخلها إلا الخبيثون ، وهي النار.

ودارا إمتزج فيها الطيب والخبيث وخلط بينهما وهي هذه الدار .

ولهذا وقع الإبتلاء والمحنة بسبب هذا الإمتزاج والإختلاط ، وذلك بموجب الحكمة الإلهية . فإذا كان يوم معاد الخليقة ميز ٱللَّه الخبيث من الطيب ، فجعل الطيب وأهله في دار على حدة لا يخالطهم غيرهم ، وجعل الخبيث وأهله في دار على حدة لا يخالطهم غيرهم ، فعاد الأمر إلى دارين فقط : الجنة ، وهي دار الطيبين ، والنار : وهي دار الخبيثين . وأنشأ ٱللَّه تعالى من أعمال الفريقين ثوابهم وعقابهم ، فجعل طيبات أقوال هؤلاء وأعمالهم وإخلاقهم هي عين نعيمهم ولذاتهم ، فأنشأ لهم منها أكمل أسباب النعيم والسرور . وجعل خبيثات أقوال الآخرين وأعمالهم وإخلاقهم



هي عين عذابهم وآلامهم فأنشأ لهم منها أعظم أسباب العقاب والآلام ، حكمة بالغة ، وعزة باهرة قاهرة ، ليري عباده كمال ربوبيته ، وكمال حكمته وعلمه وعدله ورحمته ، وليعلم أعداؤه أنهم كانوا هم المفترين الكذابين ، لا رسله البررة الصادقون قال ٱلله تعالى : ﴿ وأقسموا بٱلله جهد أيمانهم لا يبعث ٱلله من يموت بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، ليبين لهم الذي يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا إنهم كانوا كاذبين ﴾ والمقصود : أن ٱلله سبحانه جعل للسعادة والشقاوة عنوانا يعرفان به . فالسعيد الطيب لا يليق به إلا طيب ، ولا يأتي إلا طيبا ، ولا يصدر منه إلا طيب ، ولا يلبس إلا طيبا ، والشقي الخبيث لا يليق به إلا خبيث ، ولا يأتي إلا خبيثا ، ولا يصدر منه إلا الخبيث . فالخبيث : يتفجر من قلبه الخبث على لسانه وجوارحه . والطيب : يتفجر من قلبه الطيب على لسانه وجوارحه وقد يكون في الشخص مادتان ، فأيهما غلب عليه كان من أهله ، فإن أراد ٱلله به خيرا طهره من المادة الخبيثة قبل الموافاة ، فيوافيه يوم القيامة مطهرا فلا يحتاج إلى تطهيره بالنار . فيطهره منها بما يوفقه له من التوبة النصوح ، والحسنات الماحية ، والمصائب المكفرة حتى يلقى ٱلله وما عليه خطيئة . ويمسك عن الآخر مواد التطهير ، فيلقاه يوم القيامة ، بمادة خبيثة ومادة طيبة ، وحكمته تعالى تأبى ان يجاوره أحد في داره بخبائثه ، فيدخله النار طهرة له ، وتصفية وسبكا ، فإذا خلصت سبيكة إيمانه من الخبث ، صلح حينئذ لجواره ومساكنة الطيبين من عباده .

وإقامة هذا النوع من الناس في النار على حسب سرعة زوال تلك الخبائث منهم وبطئها ، فأسرعهم زوالا وتطهيرا أسرعهم خروجا ، جزاء وفاقا ، وما ربك بظلام للعبيد .

ولما كان المشرك خبيث العنصر خبيث الذات لم تطهر النار خبثه ، بل

لو خرج منها لعاد خبيثا كما كان ، كالكلب إذا دخل البحر ثم خرج منه، فلذلك حرم آلله تعالى على المشرك الجنة. ولما كان المؤمن الطيب المطيب مبرأ من الخبائث ، كانت النار حراما عليه ، إذ ليس فيه ما يقتضي تطهيره بها .

فسبحان من بهرت حكمته العقول والألباب ، وشهدت فطر عباده وعقولهم بأنه أحكم الحاكمين ورب العالمين ، لا إلـه إلّا هو .[1]

شهادة أن لا إلـه إلا آلله
معناها ، فضلها ، سرها وروحها وتحقيقها ، القيام بها ، صفتها في القلب ، نعيم أهلها .

قال آلله تعالى عن إمام الحنفاء المحبين أنه قال لقومه : ﴿أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدو لي إلا رب العالمين﴾ فلم تصح لخليل آلله هذه الموالاة والخلة إلا بتحقيق هذه المعاداة ، فإنه لا ولاء إلا لله ، ولا ولاء إلا بالبراء من كل معبود سواه ، قال تعالى : ﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذي معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون آلله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بآلله وحده﴾ وقال تعالى : ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني فإنه سيهدين وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون﴾ أي جعل هذه الموالاة لله ، والبراءة من كل معبود سواه كلمة باقية في عقبه يتوارثها الأنبياء وأتباعهم بعضهم عن بعض ، وهي كلمة لا إله

(١) من زاد المعاد

إلاّ ٱللّٰه ، وهي التي ورّثها إمام الحنفاء لأتباعه إلى يوم القيامة .

وهي الكلمة التي قامت بها الأرض والسماوات . فطر ٱللّٰه عليها جميع المخلوقات ، وعليها أسست الملة ونصبت القبلة ، وجردت سيوف الجهاد ، وهي محض حق ٱللّٰه على جميع العباد ، وهي الكلمة العاصمة للدم والمال والذرية في هذه الدار ، والمنجية من عذاب القبر وعذاب النار ، وهي المنشور الذي لا يدخل أحد الجنة إلا به ، والحبل الذي لا يصل إلى ٱللّٰه من لم يتعلق بسببه ، وهي كلمة الإسلام ، ومفتاح دار السلام وبها إنقسم الناس إلى شقي وسعيد ، ومقبول وطريد ، وبها إنفصلت دار الكفر من دار الإيمان وتميزت دار النعيم من دار الشقاء والهوان ، وهي العمود الحامل للفرض والسنة ، ومن كان آخر كلامه لا إلٰه إلا ٱللّٰه دخل الجنة .

وروح هذه الكلمة وسرها : إفراد الرب جل ثناؤه وتقدست أسماؤه ، وتبارك إسمه ، وتعالى جده ولا إلٰه غيره : بالمحبة والإجلال والتعظيم ، والخوف والرجاء وتوابع ذلك : من التوكل والإنابة والرغبة والرهبة ، فلا يُحَبُّ سواه ، وكل ما يحب غيره فإنما يحب تبعا لمحبته ، وكونه وسيلة إلى زيادة محبته ، ولا يخاف سواه ، ولا يرجى سواه ، ولا يتوكل إلا عليه ، ولا يرغب إلا إليه ، ولا يرهب إلا منه ، ولا يحلف إلا بإسمه ، ولا ينذر إلا له ، ولا يتاب إلا إليه ، ولا يطاع إلا أمره ، ولا يتحسب إلا به ، ولا يستغاث في الشدائد إلا به ولا يلتجأ إلا إليه ، ولا يسجد إلا له ، ولا يذبح إلا له وبإسمه ، ويجتمع ذلك في حرف واحد ، وهو : أن لا يعبد إلا إياه بجميع أنواع العبادة : فهذا هو تحقيق شهادة أن لا إلٰه إلا ٱللّٰه ، ولهذا حرم على النار من شهد أن لا إلٰه إلا ٱللّٰه حقيقة الشهادة ، ومحال أن يدخل النار من تحقق بحقيقة هذه الشهادة وقام بها ، كما قال تعالى : ﴿واللذينهم بشهاداتهم قائمون ﴾ فيكون قائما بشهادته في ظاهره وباطنه في قلبه وقالبه ،

فإن من الناس من تكون شهادته ميتة ، ومنهم من تكون نائمة ، إذا نبهت إنتبهت ، ومنهم من تكون مضطجعة ، ومنهم من تكون إلى القيام أقرب ، وهي في القلب بمنزلة الروح في البدن فروح ميتة ، وروح مريضة إلى الموت أقرب ، وروح إلى الحياة أقرب وروح صحيحة قائمة بمصالح البدن . وفي الحديث الصحيح عنه ﷺ : « إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد عند الموت إلا وجدت روحه لها روحا » ، فحياة الروح بحياة هذه الكلمة فيها ، كما أن حياة البدن بوجود الروح فيه ، وكما أن من مات على هذه الكلمة فهو في الجنة يتقلب فيها ، فمن عاش على تحقيقها ، والقيام بها فروحه تتقلب في جنة المأوى ، وعيشه أطيب عيش ، قال تعالى : ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى ﴾ فالجنة مأواه يوم اللقاء ، وجنة المعرفة والمحبة و الأنس بآلله والشوق إلى لقائه والفرح به والرضى به وعنه مأوى روحه في هذه الدار ، فمن كانت هذه الجنة مأواه هٰهنا كانت جنة الخلد مأواه يوم المعاد ، ومن حرم هذه الجنة فهو لتلك الجنة أشد حرمانا ، والأبرار في النعيم وإن اشتد بهم العيش وضاقت عليهم الدنيا ، والفجار في جحيم وإن إتسعت عليهم الدنيا ، قال تعالى : ﴿ فمن يرد آلله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا ﴾ فأي نعيم أطيب من شرح الصدر وأي عذاب أمر من ضيق الصدر وقال تعالى : ﴿ألا إن أولياء آلله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات آلله ذلك هو الفوز العظيم ﴾ فالمؤمن المخلص لله من أطيب الناس عيشا ، وأنعمهم بالا ، وأشرحهم صدرا ، وأسرهم قلبا ، وهذه جنة عاجلة قبل الجنة الآجلة . قال النبي ﷺ « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا ، قالوا يا رسول آلله وما رياض الجنة قال : حلق الذكر » .[1]

(١) من الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي .



منفعة الإقبال على آلله[1]
ومضرة الإعراض عن ذلك

كلما كان وجود الشيء أنفع للعبد وهو إليه أحوج ، كان تألمه بفقده أشد ، وكلما كان عدمه أنفع له كان تألمه بوجوده أشد ، ولا شيء على الإطلاق أنفع للعبد من إقباله على آلله ، وآشتغاله بذكره ، وتنعمه بحبه ، وإيثاره لمرضاته ، بل لا حياة له ولا نعيم ولا سرور ولا بهجة إلا بذلك . فعدمه آلم شيء له وأشده عليه ، وإنما تغيب الروح عن شهود هذا العذاب والألم لإشتغالها بغيره ، وإستغراقها في ذلك الغير ، فتغيب به عن شهود ما هي فيه من ألم الفوات بفراق أحب شيء إليها وأنفعه لها ، وهذا بمنزلة السكران المستغرق في سكره الذي إحترقت داره وأمواله وأهله وأولاده ، وهو لإستغراقه في السكر لا يشعر بألم الفوات وحسرته ، حتى إذا صحا وكشف عنه غطاء السكر ، وانتبه من رقدة الخمر فهو أعلم بحاله حينئذ ، وهكذا الحال سواء عند كشف الغطاء ومعاينة طلائع الآخرة والإشراف على مفارقة الدنيا ، والإنتقال منها إلى آلله ، بل الألم والحسرة والعذاب هناك أشد بأضعاف مضاعفة ، فإن المصاب في الدنيا يرجو جبر مصيبته بالعوض ، ويعلم أنه قد أصيب بشيء زائل لا بقاء له ، فكيف بمن مصيبته بما لا عوض عنه ، ولا بدل منه ، ولا نسبة بينه وبين الدنيا جميعها ، فلو قضى آلله سبحانه عليه بالموت من هذه الحسرة والألم لكان العبد جديرا به ، هذا لو كان الألم على مجرد الفوات ، فكيف وهناك من العذاب على الروح والبدن

---

(١) النعيم والسرور في الاقبال على الله، والعذاب والالم الشديد في فقد ذلك.



بأمور أخرى وجودية ما لا يقدر قدره، فتبارك من حمل هذا الخلق الضعيف هذين الألمين العظيمين اللذين لا تحملهما الجبال الرواسي .

فأعرض الآن على نفسك أعظم محبوب لك في الدنيا بحيث لا تطيب لك الحياة إلا معه ، فأصبحت وقد أخذ منك ، وحيل بينك وبينه أحوج ما كنت إليه ، فكيف يكون حالك ، هذا ومنه كل عوض فكيف بمن لا عوض عنه كما قيل .

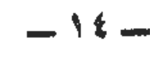
من كل شيء إذا ضيعته عوض وما من ٱلله إن ضيعته عوض وفي أثر إلهي : إبن آدم خلقتك لعبادتي فلا تلعب وتكفلت برزقك فلا تتعب ، إبن آدم أطلبني تجدني ، فإن وجدتني وجدت كل شيء وإن فتك فاتك كل شيء ، وأنا أحب إليك من كل شيء .(٢)

الصراط المستقيم في الدنيا والآخرة

إشتدت حاجة العبد بل ضرورته إلى أن يسأل ٱلله أن يهديه الصراط المستقيم ، فليس العبد أحوج إلى شيء منه إلى هذه الدعوة ، وليس شيء أنفع له منها ، فإن الصراط المستقيم يتضمن علوما وإرادات وأعمالا وتروكا ظاهرة وباطنة تجري عليه كل وقت فتفاصيل الصراط المستقيم قد يعلمها العبد ، وقد لا يعلمها ، وقد يكون ما لا يعلمه أكثر مما يعلمه ، وما يعلمه قد يقدر عليه ، وقد لا يقدر عليه ، وهو الصراط المستقيم وإن عجز عنه وما يقدر عليه قد تريده نفسه وقد لا تريده ، كسلا وتهاونا ، أو لقيام مانع وغير ذلك ، وما تريده قد يفعله وقد لا يفعله وما يفعله قد يقوم فيه بشروط

---

(٢) من الجواب الكافي .





الإخلاص وقد لا يقوم ، وما يقوم فيه بشروط الإخلاص قد يقوم فيه بكمال المتابعة وقد لا يقوم ، وما يقوم فيه بالمتابعة قد يثبت عليه وقد يصرف قلبه عنه ، وهذا كله واقع سار في الخلق ، فمستقل ومستكثر وليس في طباع العبد الهداية إلى ذلك بل متى وكل إلى طباعه حيل بينه وبين ذلك كله ، وهذا هو الإركاس الذي أركس الله به المنافقين بذنوبهم ، فأعادهم إلى طباعهم وما خلقت عليه نفوسهم من الجهل والظلم .

والرب تبارك وتعالى على صراط مستقيم في قضائه وقدره ، ونهيه وأمره ، فيهدي من يشاء إلى صراط مستقيم بفضله ورحمته ، وجعله الهداية حيث تصلح ، ويصرف من يشاء عن صراطه المستقيم بعدله وحكمته ، لعدم صلاحية المحل ، وذلك موجب صراطه المستقيم الذي هو عليه ، فهو على صراط مستقيم .

ونصب لعباده من أمره صراطا مستقيما دعاهم جميعا إليه حجة منه وعدلا ، وهدى من شاء منهم إلى سلوكه نعمة منه وفضلا ، ولم يخرج بهذا العدل وهذا الفضل عن صراطه المستقيم الذي هو عليه .

فإذا كان يوم القيامة نصب لخلقه صراطا مستقيما يوصلهم إلى جنته ، ثم صرف عنه من صرف عنه في الدنيا ، وأقام عليه من أقام عليه في الدنيا ، وجعل نور المؤمنين به وبرسوله وما جاء به الذي كان في قلوبهم في الدنيا نورا ظاهرا يسعى بين أيديهم وبأيمانهم في ظلمة الحشر ، وحفظ عليهم نورهم حتى قطعوه ، كما حفظ عليهم الإيمان به حتى لقوه ، وأطفأ نور المنافقين أحوج ما كانوا إليه ، كما أطفأه من قلوبهم في الدنيا ، وأقام أعمال العصاة بجنبتي الصراط كلاليب وحسكا تخطفهم كما خطفتهم في الدنيا عن الإستقامة عليه ، وجعل قوة سيرهم وسرعتهم عليه على قدر قوة

سيرهم وسرعتهم إليه في الدنيا ، ونصب للمؤمنين حوضا يشربون منه بإزاء شربهم من شرعه في الدنيا ، وحرم من الشرب منه هناك من حرم من الشرب من شرعه ودينه ههنا .

فانظر إلى الآخرة كأنها رأي عين ، وتأمل حكمة ٱلله سبحانه في الدارين تعلم حينئذ علما يقينا لا شك فيه أن الدنيا مزرعة الآخرة وعنوانها وأنموذجها، وأن منازل الناس فيها من السعادة والشقاوة على حسب منازلهم في هذه الدار في الإيمان والعمل الصالح وضدهما وبٱلله التوفيق .[1]

الذنــوب :
أصلها ــ أقسامها ــ أنواعها

الذنوب أصلها نوعان : ترك مأمور ، وفعل محظور ، وهما الذنبان اللذان إبتلى ٱلله سبحانه بهما أبوي الجن والإنس ، وكلاهما ينقسم باعتبار محله إلى ظاهر على الجوارح ، وباطن في القلوب ، وباعتبار متعلقه إلى حق ٱلله ، وحق خلقه ، وإن كان كل حق لخلقه فهو متضمن لحقه ، لكن سمي حقا للخلق لأنه يجب بمطالبتهم ، ويسقط بإسقاطهم .

ثم هذه الذنوب تنقسم إلى أربعة أقسام : ملكية ، وشيطانية ، وسبعية ، وبهيمية ، ولا تخرج عن ذلك .

فالذنوب الملكية : أن يتعاطى ما لا يصلح له من صفات الربوبية ، كالعظمة ، والكبرياء ، والجبروت ، والقهر ، والعلو ، والظلم واستعباد الخلق ونحو ذلك ، ويدخل في هذا الشرك بٱلله تعالى وهو نوعان : شرك به في

---

(١) من الجواب الكافي .

أسمائه وصفاته ، وجعل آلهة أخرى معه ، وشرك به في معاملته ، وهذا الثاني قد لا يوجب دخول النار ، وإن أحبط العمل الذي أشرك فيه مع آلله غيره .

وهذا القسم أعظم أنواع الذنوب ، ويدخل فيه القول على آلله بلا علم في خلقه وأمره ، فمن كان من أهل هذه الذنوب فقد نازع آلله سبحانه في ربوبيته وملكه ، وجعل له ندا ، وهذا أعظم الذنوب عند آلله ، ولا ينفع معه عمل .

وأما الشيطانية : فالتشبه بالشيطان في الحسد ، والبغي ، والغش ، والغل ، والخداع ، والمكر ، والأمر بمعاصي آلله ، وتحسينها ، والنهي عن طاعته ، وتهجينها ، والإبتداع في دينه ، والدعوة إلى البدع والضلال . وهذا النوع يلي النوع الأول في المفسدة ، وإن كانت مفسدته دونه .

وأما السبعية : فذنوب العدوان ، والغضب ، وسفك الدماء ، والتوثب على الضعفاء والعاجزين ، ويتولد منها أنواع أذى النوع الإنساني ، والجراءة على الظلم والعدوان .

وأما الذنوب البهيمية : فمثل الشره ، والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج ، ومنها يتولد الزنى ، والسرقة ، وأكل أموال اليتامى ، والبخل ، والشح ، والجبن ، والهلع ، والجزع ، وغير ذلك .

وهذا القسم أكثر ذنوب الخلق لعجزهم عن الذنوب السبعية والملكية ، ومنه يدخلون إلى سائر الأقسام ، فهو يجرهم إليها بالزمام ، فيدخلون منه إلى الذنوب السبعية ، ثم إلى الشيطانية ، ثم إلى منازعة الربوبية والشرك في الوحدانية .

ومن تأمل هذا حق التأمل تبين له أن الذنوب دهليز الشرك والكفر ومنازعة آلله ربوبيته .

وقد دل القرآن والسنة وإجماع الصحابة والتابعين بعدهم والأئمة على أن من الذنوب كبائر وصغائر ، قال ٱلله تعالى : ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما ﴾ وقال تعالى : ﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم ﴾ وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال : « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان : مكفرات لما بينهن إذا إجتنبت الكبائر .

وهذه الأعمال المكفرة لها ثلاث درجات :

إحداها : أن تقصر عن تكفير الصغائر لضعفها وضعف الإخلاص فيها ، والقيام بحقوقها ، بمنزلة الدواء الضعيف الذي ينقص عن مقاومة الداء كمية وكيفية .

الثانية : أن تقاوم الصغائر ، ولا ترتقي إلى تكفير شيء من الكبائر .

الثالثة : أن تقوى على تكفير الصغائر ، وتبقى فيها قوة تكفر بها بعض الكبائر .[1]

فتأمل هذا فأنه يزيل عنك إشكالات كثيرة وفي الصحيحين عنه ﷺ أنه قال : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر قلنا بلى يا رسول ٱلله : فقال : الإشراك بٱلله ، وعقوق الوالدين ، وشهادة الزور » .

وفي الصحيحين عنه ﷺ : « إجتنبوا السبع الموبقات قيل وما هن يا رسول ٱلله : قال : الإشراك بٱلله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم ٱلله إلا بالحق ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات .

---

(١) وقال شيخنا عبد العزيز بن باز وهنا درجة رابعة وهي أن من الأعمال ما يقوي على تكفير جميع الذنوب الصغائر والكبائر وهي التوبة النصوح .

وفي الصحيحين عنه ﷺ : أنه سئل أي الذنب أكبر عند آلله قال : « أن تدعو لله ندا وهو خلقك ، قيل ثم أي ، قال : أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك ، قال ثم أي ، قال : أن تزاني بحليلة جارك » فأنزل آلله تعالى تصديقها ﴿ والذين لا يدعون مع آلله إلـٰه آخر ولا يقتلون النفس التي حرم آلله إلا بالحق ، ولا يزنون الآية ... ﴾ .

واختلف الناس في الكبائر ، هل لها عدد يحصرها ، على قولين .

وقال أبو طالب المكي : جمعتها من أقوال الصحابة فوجدتها أربعة في القلب ، وهي : الشرك بآلله ، والإصرار على المعصية ، والقنوط من رحمة آلله ، والأمن من مكر الله ﴾ .

وأربعة في اللسان : وهي : شهادة الزور ، وقذف المحصنات ، واليمين الغموس ، والسحر .

وثلاثة في البطن : شرب الخمر ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا .

واثنتان في الفرج : وهما الزنا واللواط .

واثنتان في اليدين : وهما القتل ، والسرقة .

وواحد في الرجلين : وهو الفرار من الزحف .

وواحد يتعلق بجميع الجسد ، وهو عقوق الوالدين .(٢)

من عقوبات الذنوب

تضعيف السير إلى آلله والدار الآخرة ، زوال النعم وحلول النقم ، الرعب والخوف والوحشة ، صرف القلب عن صحته واستقامته إلى مرضه وانحرافه ، عمي القلب وطمس نوره ، سقوط الجاه والمنزلة والكرامة عند آلله وعند

(٢) من الجواب الكافي باختصار .

خلقه ، نقصان العقل ، محق بركة العمر والرزق والعلم والعمل والطاعة ، تجرىء أصناف المخلوقات على العبد بالأذى ، نسيان العبد نفسه ، تباعد الملك عن العبد وقرب شيطانه ، علل القلب المهلكة في الدنيا والآخرة ، ضنك المعيشة في الدنيا وفي البرزخ والعذاب في الآخرة .[٣]

تضعيف السير إلى آلله والدار الآخرة

ومن عقوبات الذنوب : أنها تضعف سير القلب إلى آلله والدار الآخرة ، أو تعوِّقه أو توقفه وتقطعه عن السير ، فلا تدعه يخطو إلى آلله خطوة ، هذا إن لم ترده عن وجهته إلى ورائه ، فالذنب يحجب الواصل ويقطع السائر ، وينكس الطالب ، والقلب إنما يسير إلى آلله بقوته ، فإذا مرض بالذنوب ضعفت تلك القوة التي تسيره ، فإن زالت بالكلية إنقطع عن آلله إنقطاعا يبعد تداركه . وآلله المستعان .

فالذنب إما أن يميت القلب ، أو يمرضه مرضا مخوفا ، أو يضعف قوته ولا بد ، حتى ينتهي ضعفه إلى الأشياء الثمانية التي إستعاذ منها النبي ﷺ

---

(٣) قلت : نظم الكبائر التي جمعها أبو طالب المكي ، الشيخ يوسف بن الحسين بن أحمد بن زيارة فقال :

ألا إن أنــواع الكبائــر سبعــة	وعشر فمنها أربع قيل في القلب
هي الشرك بالرحمن مع أمن مكره	ويأس وإصرار المسيء على الذنب
وفي الفم صنع السحر قذف لمحصن	يمين غموس والشهادة بالكذب
وفي البطن شرب للخمور وأكله	لمال اليتيم والربا بئس للمربي
وثنتان في الفرج الزنا وتلوط	وأما يد فالسرق قتل بلا ذنب
وإن فر من زحف ففي الرجل والتي	تعم عقوق العاق للأم والأب

وهي : الهم ، والحزن ، والعجز ، والكسل ، والجبن ، والبخل ، وضلع الدين ، وغلبة الرجال . وكل إثنين منها قرينان . فالهم والحزن قرينان ، فإن المكروه الوارد على القلب إن كان من أمر مستقبل يتوقعه أحدث الهم وإن كان من أمر ماض قد وقع أحدث الحزن. والعجز والكسل قرينان، فإن تخلف العبد عن أسباب الخير والفلاح إن كان لعدم قدرته فهو العجز، وإن كان لعدم إرادته فهو الكسل. والجبن والبخل قرينان فإن عدم النفع منه إن كان ببدنه فهو الجبن، وإن كان بماله فهو البخل. وضلع الدين وقهر الرجال قرينان، فإن إستعلاء الغير عليه إن كان بحق فهو من ضلع الدين، وإن كان بباطل فهو قهر الرجال .

والمقصود : أن الذنوب من أقوى الأسباب الجالبة لهذه الثمانية ، كما أنها من أقوى الأسباب الجالبة لجهد البلاء ، ودرك الشقاء ، وسوء القضاء ، وشماتة الأعداء ، ومن أقوى الأسباب الجالبة لزوال نعم ٱلله ، وتحول عافيته إلى نقمته ، وتجلب جميع سخطه .

زوال النعم وحلول النقم

ومن عقوبات الذنوب : أنها تزيل النعم وتحل النقم ، فما زالت عن العبد نعمة إلا بذنب ، ولا حلت به نقمة إلا بذنب . كما قال على بن أبي طالب رضي ٱلله عنه : (ما نزل بلاء إلا بذنب ، ولا يرفع إلا بتوبة) . وقد قال تعالى : ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ وقال تعالى : ﴿ ذلك بأن ٱلله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ فأخبر ٱلله تعالى أنه لا يغير نعمه التي أنعم بها على أحد حتى يكون هو الذي يغير ما بنفسه ، فيغير طاعة ٱلله بمعصيته ، وشكره

بكفره ، وأسباب رضاه بأسباب سخطه[1] فإذا غَير غُيِّر عليه جزاء وفاقا وما ربك بظلام للعبيد فإن غير المعصية بالطاعة غير آلله عليه العقوبة بالعافية ، والذل بالعز ، وقال تعالى : ﴿ إن آلله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد آلله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال ﴾ وفي بعض الآثار الآلهية ، عن الرب تبارك وتعالى أنه قال : ﴿ وعزتي وجلالي ، لا يكون عبد من عبيدي على ما أحب ، ثم ينتقل عنه إلى ما أكره ، إلا إنتقلت له مما يحب إلى ما يكره ، ولا يكون عبد من عبيدي على ما أكره ثم ينتقل عنه إلى ما أحب إلا إنتقلت له مما يكره إلى ما يحب ﴾ .

ولقد أحسن القائل

إذا كنت في نعمة فارعها	فإن الذنوب تزيل النعم
وحطها بطاعة رب العباد	فرب العباد سريع النقم
وإياك والظلم مهما استطعت	فظلم العباد شديد الوخم[2]
وسافر بقلبك بين الورى	لتبصر آثار من قد ظلم
فتلك مساكنهم بعدهم	شهود عليهم ولا تتهم
وما كان شيء عليهم أضر	من الظلم وهو الذي قصم[3]

---

(١) فإذا غير غير عليه جزاء وفاقا ، وما ربك بظلام للعبيد .

(٢) الوخم : الوبى ، والمراد هنا سيء العاقبة .

(٣) قصم الشيء : أي كسره، وهذا مأخوذ من قولهم : قاصمة الظهر، أي أنه يضعف القوة ويجلب الضعف .

فكم تركوا من جنات ومن قصور وأخرى عليهم أطم[٤]
صُلوا بالجحيم وفات النعيم وكان الذي نالهم كالحلم[٥]

الرعب والخوف والوحشة

ومن عقوبات الذنوب : ما يلقيه آلله سبحانه من الرعب والخوف في قلب العاصي ، فلا تراه إلا خائفا مرعوبا ، فإن الطاعة حصن آلله الأعظم ، الذي من دخله كان من الآمنين من عقوبة الدنيا والآخرة، ومن خرج عنه أحاطت به المخاوف من كل جانب ، فمن أطاع آلله إنقلبت المخاوف في حقه أمانا ، ومن عصاه إنقلبت مآمنه مخاوف ، فلا تجد العاصي إلا وقلبه كأنه بين جناحي طائر ، إن حركت الريح الباب قال : جاء الطلب ، وإن سمع وقع قدم خاف أن يكون نذيرا بالطلب ، يحسب أن كل صيحة عليه ، وكل مكروه قاصدا إليه ، فمن خاف آلله آمنه من كل شيء ، ومن لم يخف آلله أخافه من كل شيء :

بذا قضى آلله بين الناس مذ خلقوا
إن المخاوف والإجرام في قرن

ومن عقوباتها : أنها توقع الوحشة العظيمة في القلب فيجد المذنب نفسه مستوحشا ، قد وقعت الوحشة بينه وبين ربه ، وبينه وبين الخلق ، وبينه وبين

(٤) أطم : قال في حاشية الطبعة الأولى هي بضم الهمزة والطاء بناء مرتفع والمراد القصور وقال في حاشية مطبعة المدني التي حققها العلامة محمد محيي الدين عبد الحميد : أطم : أفعل تفضيل من قولهم طَمّ الوادي إذا امتلأ ماء والمراد أنها اشد وأفضع اهـ قلت والأخير هو الأصح بدليل قوله في البيت الذي بعده : صلوا بالجحيم الخ ...

(٥) الحلم ما يراه النائم .

نفسه ، وكلما كثرت الذنوب إشتدت الوحشة ، وأمرُّ العيش عيش المستوحشين الخائفين ، وأطيب العيش عيش المستأنسين ، فلو نظر العاقل ووازن لذة المعصية وما توقعه من الخوف والوحشة لعلم سوء حاله وعظيم غبنه ، إذ باع أنس الطاعة وأمنها وحلاوتها بوحشة المعصية وما توجبه من الخوف والضرر الداعي له ، كما قيل :

فإن كنت قد أوحشتك الذنوب فدعها إذا شئت واستأنس

وسر المسألة : أن الطاعة توجب القرب من الرب سبحانه ، فكلما إشتد القرب قوي الأنس ، والمعصية توجب البعد من الرب ، وكلما إزداد البعد قويت الوحشة ، ولهذا يجد العبد وحشة بينه وبين عدوه للبعد الذي بينهما وإن كان ملابسا له قريبا منه ، ويجد أنسا وقربا بينه وبين من يحب ، وإن كان بعيدا عنه ، والوحشة سببها الحجاب ، وكلما غلظ الحجاب زادت الوحشة ، فالغفلة توجب الوحشة ، وأشد منها وحشة المعصية ، وأشد منها وحشة الشرك والكفر ، ولا تجد أحدا ملابسا شيئا من ذلك إلا ويعلوه من الوحشة بحسب ما لابسه منه ، فتعلو الوحشة وجهه وقلبه ، فيستوحش ويستوحش منه .

صرف القلب عن صحته واستقامته إلى مرضه وانحرافه

ومن عقوبات الذنوب : أنها تصرف القلب عن صحته واستقامته إلى مرضه وانحرافه ، فلا يزال مريضا معلولا لا ينتفع بالأغذية التي بها حياته وصلاحه ، فإن تأثير الذنوب في القلب كتأثير الأمراض في الأبدان ، بل الذنوب أمراض القلوب وداؤها ، ولا دواء لها إلا تركها ، وقد أجمع السائرون



إلى آلله أن القلوب لا تعطى مناها حتى تصل إلى مولاها ، ولا تصل إلى مولاها حتى تكون صحيحة سليمة ، ولا تكون صحيحة سليمة حتى ينقلب داؤها فيصير نفس دوائها ، ولا يصح لها ذلك إلا بمخالفة هواها ، فهواها مرضها[1] ، وشفاها مخالفته ، فإن إستحكم المرض قتل أو كاد . وكما أن من نهى نفسه عن الهوى كانت الجنة مأواه ، فكذا يكون قلبه في هذه الدار في جنة عاجلة ، لا يشبه نعيم أهلها نعيما البتة[2] بل التفاوت الذي بين النعيمين كالتفاوت الذي بين نعيم الدنيا والآخرة ، وهذا أمر لا يصدق به إلا من باشر قلبه هذا وهذا . ولا تحسب أن قوله تعالى : ﴿ إن الأبرار لفي نعيم ، وإن الفجار لفي جحيم ﴾ مقصور على نعيم الآخرة وجحيمها فقط ، بل في دورهم الثلاثة هم كذلك أعني دار الدنيا ، ودار البرزخ ، ودار القرار . فهؤلاء في نعيم وهؤلاء في جحيم ، وهل النعيم إلا نعيم القلب ، وهل العذاب إلا عذاب القلب ، وأي عذاب أشد من الخوف والهم والحزن ، وضيق الصدر ، وإعراضه عن آلله والدار الآخرة ، وتعلقه بغير آلله وانقطاعه عن آلله ، بكل واد منه شعبة ، وكل من تعلق به وأحبه من دون آلله فإنه يسومه سوء العذاب ، فكل من أحب شيئا غير آلله عذب به ثلاث مرات في هذه الدار ، فهو يعذب به قبل حصوله حتى يحصل ، فإذا حصل عذب به حال حصوله بالخوف من سلبه وفواته ، والتنغيص والتنكيد عليه ، وأنواع المعارضات فإذا سلبه إشتد عذابه عليه ، فهذه ثلاثة أنواع من العذاب في هذه الدار .

وأما في البرزخ : فعذاب يقارنه ألم الفراق الذي لا يرجو عوده ، وألم فوات ما فاته من النعيم العظيم باشتغاله بضده ، وألم الحجاب عن آلله ، وألم

---

(١) وبتأمل ما ذكر : يفهم معنى قوله ﷺ : «لايؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به.

(٢) في نسخة أخرى (نعيم البتة) وهي حسن ليكون الأول هو المفعول والأخير هو الفاعل ويتضح المعنى.

الحسرة التي تقطع الأكباد ، فالهم والغم والحسرة والحزن تعمل في نفوسهم نظير ما يعمل الهوام والديدان في أبدانهم ، بل عملها في النفوس دائم مستمر حتى يردها الله إلى أجسادها ، فحينئذ ينتقل العذاب إلى نوع هو أدهى وأمر ، فأين هذا من نعيم من يرقص قلبه طربا وفرحا وأنسا بربه ، واشتياقا إليه ، وارتياحا بحبه ، وطمأنينة بذكره ، حتى يقول بعضهم في حال نزعه : واطرباه ويقول الآخر : إن كان أهل الجنة في مثل هذا الحال ، إنهم لفي عيش طيب . ويقول الآخر : مساكين أهل الدنيا خرجوا منها وما ذاقوا لذيذ العيش فيها ، وما ذاقوا أطيب ما فيها . ويقول الآخر : لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف . ويقول الآخر : إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة .

فيا من باع حظه الغالي بأبخس الثمن ، وغبن كل الغبن في هذا العقد ، وهو يرى أنه قد غبن ، إذا لم تكن لك خبرة بقيمة السلعة فسل المقومين ، فيا عجبا من بضاعة معك الله مشتريها ، وثمنها جنة المأوى ، والسفير الذي جرى على يديه عقد التبايع وضمن الثمن عن المشترى هو الرسول ﷺ وقد بعتها بغاية الهوان . كما قال القائل :

إذا كان هذا فعل عبد بنفسه   فمن ذا له من بعد ذلك يكرم

(ومن يهن الله فماله من مكرم إن الله يفعل ما يشاء)

عمى القلب وطمس نوره

ومن عقوبات الذنوب : أنها تعمي بصيرة القلب، وتطمس نوره، وتسد طريق العلم، وتحجب مواد الهداية، وقد قال مالك للشافعي لما اجتمع به



ورأى تلك المخايل[٣] : إني أرى آلله تعالى قد ألقى عليك نورا، فلا تطفئه بظلمة المعصية.

ولا يزال هذا النور يضعف ويضمحل، وظلام المعصية يقوى حتى يصير القلب في مثل الليل البهيم، فكم من مهلك يسقط فيه ولا يبصره، كأعمى خرج بالليل في طريق ذات مهالك، ومعاطب، فيا عزة السلامة، ويا سرعة العطب، ثم تقوى تلك الظلمات، وتفيض من القلب إلى الجوارح، فيغشى الوجه منه سواد، بحسب قوتها وتزايدها، فإذا كان عند الموت ظهرت في البرزخ، فامتلأ القبر ظلمة كما قال النبي ﷺ : «إن هذه القبور ممتلئة على أهلها ظلمة، وإن آلله ينورها بصلاتي عليهم». فإذا كان يوم الميعاد وحشر العباد، علت الوجوه علوا ظاهرا يراه كل أحد حتى يصير الوجه أسود مثل الحممة[٤] فيالها من عقوبة لا توازن[٥] لذات الدنيا بأجمعها من أولها إلى آخرها، فكيف بقسط العبد المنكد المتعب في زمن إنما هو ساعة من حلم، فآلله المستعان.

سقوط الجاه والمنزلة والكرامة عند آلله وعند خلقه

ومن عقوبات الذنوب : سقوط الجاه والمنزلة والكرامة عند آلله وعند خلقه ، فإن أكرم الخلق عند آلله أتقاهم ، وأقربهم منه منزلة أطوعهم له ، وعلى قدر طاعة العبد له تكون منزلته عنده ، فإذا عصاه وخالف أمره سقط

(٣) جمع مخيلة الامارات.
(٤) الحممة : الفحم.
(٥) كذا في النسختين ولعل الصواب (لا توازنها).




من عينه ، فأسقطه من قلوب عباده ، وإذا لم يبق له جاه عند الخلق وهان عليه عاملوه على حسب ذلك ، فعاش بينهم أسوأ عيش ، خامل الذكر ، ساقط القدر ، زري الحال ، لا حرية له ، ولا فرح له ولا سرور ، فإن خمول الذكر وسقوط القدر والجاه جالب كل غم وهم وحزن ، ولا سرور معه ولا فرح .

وأين هذا الألم من لذة المعصية لولا سكر الشهوة . ومن أعظم نعم الله على العبد : أن يرفع له بين العالمين ذكره ، ويعلي قدره ، ولهذا خص أنبياءه ورسله من ذلك لما ليس لغيرهم كما قال تعالى : ﴿ واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ﴾ أي خصصناهم بخصيصة ، وهو الذكر الجميل يذكرون به في هذه الدار ، وهو لسان الصدق الذي سأله إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ، حيث قال : « واجعل لي لسان صدق في الآخرين » وقال سبحانه وتعالى عنه وعن بنيه : ﴿ ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا ﴾ وقال لنبيه ﷺ ﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ .

فأتباع الرسل لهم نصيبهم من ذلك بحسب ميراثهم من طاعتهم ومتابعتهم ، وكل من خالفهم فإنه بعيد من ذلك بحسب مخالفتهم ومعصيتهم .

نقصان العقل

ومن عقوبات الذنوب : أنها تؤثر بالخاصة في نقصان العقل ، فلا تجد عاقلين أحدهما مطيع لله والآخر عاص إلا وعقل المطيع منهما أوفر وأكمل ، وفكره أصح ، ورأيه أسدّ ، والصواب قرينه ، ولهذا تجد خطاب القرآن إنما



هو مع أولي العقول والألباب كقوله : ﴿ واتقوا آلله يا أولي الألباب ﴾ وقوله : ﴿ فاتقوا آلله يا أولي الألباب لعلكم تفلحون ﴾ وقوله : ﴿ وما يذكر إلا أولو الألباب ﴾ ونظائر ذلك كثيرة .

وكيف يكون عاقلا وافر العقل من يعصي من هو في قبضته ، وفي داره ، وهو يعلم أنه يراه ويشاهده ، فيعصيه وهو بعينه غير متوار عنه ، ويستعين بنعمه على مساخطه ، ويستدعي كل وقت غضبه عليه ولعنته له ، وأبعاده من قربه ، وطرده عن بابه ، وإعراضه عنه ، وخذلانه له ، والتخلية بينه وبين نفسه وعدوه ، وسقوطه من عينه ، وحرمانه من رضاه وحبه ، وقرة العين بقربه ، والفوز بجواره ، والنظر إلى وجهه في زمرة أوليائه ، إلى أضعاف أضعاف ذلك من عقوبة أهل المعصية ، فأي عقل لمن آثر لذة ساعة أو يوم أو دهر ، ثم تنقضي كأنها حلم لم يكن ، على هذا النعيم المقيم والفوز العظيم ، بل هو سعادة الدنيا والآخرة ، ولولا العقل الذي تقوم به عليه الحجة لكان بمنزلة المجانين بل قد تكون المجانين أحسن حالا منه وأسلم عقوبة ، فهذا من هذا الوجه .

وأما تأثيرها في نقصان العقل المعيشي ، فلولا الإشتراك في هذا النقصان لظهر لمطيعنا نقصان عقل عاصينا ، ولكن الجائحة عامة والجنون فنون ، ويا عجبا لو صحت العقول لعلمت أن طريق تحصيل اللذة والفرحة والسرور وطيب العيش إنما هو في رضاء من النعيم كله في رضاه ، والألم والعذاب كله في سخطه وغضبه ، ففي رضاه قرة العيون وسرور النفوس ، وحياة القلوب ، ولذة الأرواح ، وطيب الحياة ، ولذة العيش ، وأطيب النعيم ، مما لو وزن منه مثقال ذرة بنعيم الدنيا لم يف به ، بل إذا حصل للقلب من ذلك أيسر نصيب لم يرض بالدنيا وما فيها عوضا منه ، ومع هذا فهو يتنعم بنصيبه من الدنيا أعظم من تنعم المترفين فيها ، ولا يشوب تنعمه بذلك الحظ

اليسير ما يشوب تنعم المترفين من الهموم والغموم والأحزان والمعارضات ، بل قد يحصل على النعيمين ، وهو ينتظر نعيمين آخرين أعظم منهما ، وما يحصل له في خلال ذلك من الآلام فالْأمر كما قال تعالى : ﴿ إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من آلله ما لا يرجون ﴾ فلا إلٰه إلا آلله ، ما أنقص عقل من باع الدر بالبعر والمسك بالرجيع ، ومرافقة الذين أنعم آلله عليهم من النبيين والصديقيين والشهداء والصالحين . بمرافقة الذين غضب آلله عليهم ولعنهم وأعد لهم جنهم وساءت مصيرا .

محق بركة العمر والرزق والعلم والعمل والطاعة

ومن عقوبات الذنوب : أنها تمحق بركة العمر ، وبركة الرزق ، وبركة العلم ، وبركة العمل ، وبركة الطاعة . وبالجملة تمحق بركة الدين والدنيا ، فلا تجد أقل بركة في عمره ودينه ودنياه ممن عصى آلله ، وما محقت البركة من الأرض إلا بمعاصي الخلق . قال آلله تعالى : ﴿ وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا ، لنفتنهم فيه ﴾ وإن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه .

وفي الحديث : إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها ، فاتقوا آلله واجملوا في الطلب ، فإنه لا ينال ما عند آلله إلا بطاعته ، وإن آلله جعل الرَّوْح[1] والفرح في الرضى واليقين ، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط . وقد تقدم الأثر الذي ذكره الإمام أحمد في كتاب الزهد : أنا آلله ، إذا رضيت باركت وليس لبركتي نهاية ، وإذا غضبت لعنت ولعنتي تدرك السابع من الولد : وليس سعة الرزق والعمل بكثرته ، ولا

(١) الروح : بفتح وسكون ـــ الرحمة ، ومادة الحياة الطيبة .

طول العمر بكثرة الشهور والأعوام ، ولكن سعة الرزق والعمر بالبركة فيه .

وقد تقدم أن عمر العبد هو مدة حياته ، ولا حياة لمن أعرض عن آلله واشتغل بغيره ، بل حياة البهائم خير من حياته ، فإن حياة الإنسان بحياة قلبه وروحه ولا حياة لقلبه إلا بمعرفة فاطره ومحبته وعبادته وحده ، والإنابة إليه ، والطمأنينة بذكره ، والأنس بقربه ، ومن فقد هذه الحياة فقد الخير كله ، ولو تعوض عنها بما تعوض به في الدنيا ، بل ليست الدنيا بأجمعها عوضا عن هذه الحياة ، فمن كل شيء يفوت العبد عوض ، وإذا فاته آلله لم يعوض عنه شيء البتة . وكيف يعوض الفقير بالذات عن الغني بالذات ، والعاجز بالذات عن القادر بالذات ، والميت عن الحي الذي لا يموت ، والمخلوق عن الخالق ، ومن لا وجود له ولا شيء له من ذاته البتة عمن غناه وحياته وكماله وجوده ورحمته من لوازم ذاته ، وكيف يعوض من لا يملك مثقال ذرة عمن له ملك السماوات والأرض وإنما كانت معصية آلله سببا لمحق بركة الرزق والأجل ، لأن الشيطان موكل بها وبأصحابها ، فسلطانه عليهم ، وحوالته على هذا الديوان وأهله وأصحابه ، وكل شيء يتصل به الشيطان ويقارنه فبركته ممحوقة .

ولهذا شرع ذكر إسم آلله تعالى عند الأكل والشرب واللبس والركوب والجماع ، لما في مقارنة إسم آلله من البركة ، وذكر إسمه يطرد الشيطان فتحصل البركة ، ولا معارض له ، وكل شيء لا يكون لله فبركته منزوعة ، فإن الرب هو الذي يبارك وحده ، والبركة كلها منه ، وكل ما نسب إليه مبارك ، ورسوله مبارك ، وعبده المؤمن النافع لخلقه مبارك ، وبيته الحرام مبارك ، وكنانته من أرضه وهي الشام أرض البركة وصفها بالبركة في ست آيات من كتابه ، فلا مبارك إلا هو وحده ، ولا مبارك إلا ما نسب إليه ، أعني إلى ألوهيته ومحبته ورضاه ، وإلا فالكون كله منسوب إلى ربوبيته وخلقه ، وكل

ما باعده من نفسه من الأعيان والأقوال والأعمال فلا بركة فيه ، ولا خير فيه ، وكل ما كان منه قريبا ففيه من البركة على قدر قربه منه .

وضد البركة اللعنة ، فأرض لعنها ٱللّه ، أو شخص لعنه ٱللّه ، أو عمل لعنه ٱللّه ، أبعد شيء من الخير والبركة ، وكل ما اتصل بذلك وارتبط به كان منه بسبيل فلا بركة فيه البتة ، وقد لعن عدوه إبليس وجعله أبعد خلقه منه ، فكل ما كان من جهته فله من لعنة ٱللّه بقدر قربه منه واتصاله به ، فمن هٰهنا كان للمعاصي أعظم تأثير في محق بركة العمر والرزق والعلم والعمل ، وكل وقت عصيت ٱللّه فيه ، أو مال عصي ٱللّه به ، أو بدن أو جاه أو علم أو عمل فهو على صاحبه ، ليس له ، فليس له من عمره وماله وقوته وجاهه وعلمه وعمله إلا ما أطاع ٱللّه به .

ولهذا فمن الناس من يعيش في هذه الدار مائة سنة أو نحوها ، ويكون عمره لا يبلغ عشر سنوات أو نحوها ، كما أن منهم من يملك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ويكون ماله في الحقيقة لا يبلغ ألف درهم أو نحوها ، وهكذا الجاه والعلم .

وفي الترمذي عنه ﷺ : « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر ٱللّه وما والاه ، وعالم أو متعلم » . وفي أثر آخر : « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله : فهذا هو الذي فيه البركة خاصة . وٱللّه المستعان .

تجرىء أصناف المخلوقات على العبد بالأذى

ومن عقوبات المعاصي : أنها تجرىء على العبد ما لم يكن يجترىء عليه من أصناف المخلوقات ، فتجترىء عليه الشياطين بالأذى والإغوى والوسوسة والتخويف والتحزين ، وإنسائه ما به مصلحته في ذكره ومضرته في

نسيانه ، فتجترىء عليه الشياطين حتى تؤزّه إلى معصية آلله أزّا[1] وتجتري عليه شياطين الإنس بما تقدر عليه من أذاه في غيبته وحضوره ، ويجترىء عليه أهله وخدمه وأولاده وجيرانه حتى الحيوان البهيم . قال بعض السلف : أني لأعصي آلله فأعرف ذلك في خلق إمرأتي ودابتي . وكذلك يجترىء عليه أولياء الأمر بالعقوبة التي إن عدلوا فيها أقاموا عليه حدود آلله ، وتجتريء عليه نفسه فتتأسد عليه وتستصعب عليه ، فلو أرادها لخير لم تطاوعه ولم تنقد له ، وتسوقه إلى ما فيه هلاكه ، شاء أم أبى . ذلك أن الطاعة حصن الرب تبارك وتعالى الذي من دخله كان من الآمنين ، فإذا فارق الحصن إجترأ عليه قطاع الطريق وغيرهم ، وعلى حسب إجترائه على معاصي آلله يكون إجتراء هذه الآفات والنفوس عليه ، وليس له شيء يرد عنه ، فإن ذكر آلله وطاعته ، والصدقة ، وإرشاد الجاهل ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر وقاية ترد عن العبد ، بمنزلة القوة التي ترد المرض وتقاومه . فإذا سقطت القوة غلب وارد المرض فكان الهلاك ، فلا بد للعبد من شيء يرد عنه ، فإن موجبات السيئات والحسنات تتدافع ، ويكون الحكم للغالب كما تقدم ، وكلما قوي جانب الحسنات كان الرد أقوى كما تقدم . فإن آلله يدافع عن الذين آمنوا والإيمان قول وعمل ، فبحسب قوة الإيمان تكون قوة الدفع ، وآلله المستعان .

نسيان العبد نفسه

ومن عقوبات المعاصي : أنها تنسي العبد نفسه ، وإذا نسي نفسه أهملها وأفسدها وأهلكها فإن قيل : كيف ينسى العبد نفسه ، وإذا نسي فأي شيء

---

(١) تؤزّه أزًّا : تدفعه دفعا شديدا .

يذكر ، وما معنى نسيانه نفسه . قيل : نعم ينسى نفسه أعظم نسيان ، قال تعالى : ﴿ ولا تكونوا كالذين نسوا آلله فأنساهم أنفسهم ، أولائك هم الفاسقون ﴾ فلما نسوا ربهم سبحانه نسيهم وأنساهم أنفسهم ، كما قال آلله تعالى : ﴿ نسوا آلله فنسيهم ﴾ فعاقب سبحانه من نسيه عقوبتين : أحدهما أنه سبحانه نسيه والثانية أنه أنساه نفسه .

ونسيانه سبحانه للعبد إهماله وتركه وتخليه عنه وإضاعته ، فالهلاك أدنى إليه من اليد والفم .

وأما إنساؤه نفسه ، فهو إنساؤه لحظوظها العالية وأسباب سعادتها وفلاحها وصلاحها وما تكمل به ، ينسيه ذلك جميعه ، فلا يخطره بباله ، ولا يجعله على ذكره ، ولا يصرف إليه همته فيرغب فيه ، فإنه لا يمر بباله حتى يقصده ويؤثره .

وأيضا : فينسيه أمراض نفسه وقلبه وآلامها ، فلا يخطر بقلبه مداواتها ، ولا السعي في إزالة عللها وأمراضها التي تؤول به إلى الفساد والهلاك ، فهو مريض مثخن بالمرض ، ومرضه مترام به إلى التلف ، ولا يشعر بمرضه ، ولا يخطر بباله مداواته ، وهذا من أعظم العقوبة العامة والخاصة .

فأي عقوبة أعظم من عقوبة من أهمل نفسه وضيعها ، ونسي مصالحها وداءها ودواءها ، وأسباب سعادتها وفلاحها وصلاحها وحياتها الأبدية في النعيم المقيم .

ومن تأمل هذا الموضع تبين له أن أكثر هذا الخلق قد نسوا أنفسهم حقيقة وضيعوها ، وأضاعوا حظها من آلله ، وباعوها رخيصة بثمن بخس بيع الغبن ، وإنما يظهر لهم عند الموت ، ويظهر هذا كل الظهور يوم التغابن ، يوم يظهر للعبد أنه غبن في العقد الذي عقده لنفسه في هذه الدار ، والتجارة التي أتجر فيها لمعاده ، فإن كل أحد يتجر في هذه الدار لآخرته .

فالخاسرون : الذين يعتقدون أنهم أهل الربح والكسب إشتروا الحياة الدنيا وحظهم فيها ولذاتهم بالآخرة وحظهم فيها ، فأذهبوا طيباتهم في حياتهم الدنيا ، واستمتعوا بها ، ورضوا بها ، واطمأنوا إليها ، وكان سعيهم لتحصيلها ، فباعوا واشتروا وأتجروا وباعوا آجلا بعاجل ، ونسيئه بنقد ، وغائبا بناجز ، وقالوا : هذا هو الحزم ، ويقول أحدهم : خذ ما تراه ودع شيئا سمعت به . فكيف أبيع حاضرا نقدا مشاهدا في هذه الدار بغائب نسيئه في دار أخرى غير هذه ، وينضم إلى ذالك ضعف الإيمان ، وقوة داعي الشهوة ومحبة العاجلة والتشبه ببني الجنس ، فأكثر الخلق في هذه التجارة الخاسرة التى قال ٱللّٰه سبحانه في أهلها : ﴿ أولائك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون ﴾ وقال فيهم : ﴿ فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ﴾ فإذا كان يوم التغابن ظهر لهم الغبن في هذه التجارة ، فتتقطع عليها النفوس حسرات .

وأما الرابحون : فإنهم باعوا فانيا بباق ، وخسيسا بنفيس ، وحقيرا بعظيم ، وقالوا : ما مقدار هذه الدنيا من أولها إلى آخرها ، حتى نبيع حظنا من ٱللّٰه تعالى والدار الآخرة بها ، فكيف بما ينال العبد منها في هذا الزمن القصير الذي هو في الحقيقة كغفوة حلم ، لا نسبة له إلى دار القرار البتة ، قال تعالى : ﴿ ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم ﴾ وقال تعالى : ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها ، فيم أنت من ذكراها ، إلى ربك منتهاها ، إنما أنت منذر من يخشاها ، كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾ وقال تعالى : ﴿ كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ ﴾ وقال تعالى : ﴿ قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين ، قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم ، فاسأل العادين . قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون ﴾ وقال تعالى : ﴿ يوم ينفخ في الصور ونحشر

المجرمين يومئذ زرقا ، يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشرا ، نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوما ﴾ فهذه حقيقة هذه الدنيا عند موافاة يوم القيامة ، فلما علموا قلة لبثهم فيها ، وأن لهم دارا غير هذه الدار ، هي دار الحيوان ودار البقاء رؤا من أعظم الغبن بيع دار البقاء بدار الفناء فاتجروا تجارة الأكياس، ولم يغتروا بتجارة السفهاء من الناس، فظهر لهم يوم التغابن ربح تجارتهم ومقدار ما اشتروه .

وكل أحد في هذه الدنيا بائع مشتر متجر ، وكل الناس يغدوا فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها ﴿ إن آلله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل آلله فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من آلله ، فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾ فهذا أول نقد من ثمن هذه التجارة . فتاجروا أيها المفلسون ، ويا من لا يقدر على هذا الثمن هٰهنا ثمن آخر ، فإن كنت من أهل هذه التجارة فاعط هذا الثمن ﴿ التائبون ، العابدون ، الحامدون ، السائحون ، الراكعون ، الساجدون ، الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود آلله ، وبشر المؤمنين ﴾ ﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون بآلله ورسوله ، وتجاهدون في سبيل آلله بأموالكم وأنفسكم ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ .

والمقصود : أن الذنوب تنسي العبد حظه من هذه التجارة الرابحة ، وتشغله بالتجارة الخاسرة ، وكفى بذلك عقوبة ، وآلله المستعان .

تباعد الملك عن العبد وقرب شيطانه منه

ومن عقوبات المعاصي : أنها تبعد عن العبد وليه ، وأنفع الخلق له ،



وأنصحهم له ، ومن سعادته في قربه منه ، وهو الملك الموكل به ، وتدني منه عدوه ، وأغش الخلق له ، وأعظمهم ضررا له ، وهو الشيطان : فإن العبد إذا عصى آلله تباعد منه الملك بقدر تلك المعصية ، حتى إنه يتباعد عنه بالكذبة الواحدة مسافة بعيدة .

وفي بعض الآثار : إذا كذب العبد تباعد منه الملك ميلا من نتن ريحه . فإذا كان هذا تباعد الملك منه من كذبة واحدة . فماذا يكون مقدار بعده منه مما هو أكبر من ذلك ، وأفحش منه . وقال بعض السلف : إذا ركب الذكر الذكر عجت الأرض إلى آلله ، وهربت الملائكة إلى ربها ، وشكت إليه عظيم ما رأت . وقال بعض السلف : إذا أصبح العبد إبتدره الملك والشيطان ، فإذا ذكر آلله وكبره وحمده وهلله طرد الملك الشيطان وتولاه ، وإن إفتتح بغير ذلك ذهب الملك عنه وتولاه الشيطان .

ولا يزال الملك يقرب من العبد حتى يصير الحكم والطاعة والغلبة له فتتولاه الملائكة في حياته وعند موته وعند بعثه ، كما قال آلله تعالى : ﴿ إن الذين قالوا ربنا آلله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا ، وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون ، نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ .

وإذا تولاه الملك تولاه أنصح الخلق له وأنفعهم وأبرهم ، فثبته ، وعلمه ، وقوى جنانه ، وأيده ، قال تعالى : ﴿ إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم ، فثبتوا الذين آمنوا ﴾ . فيقول له الملك عند الموت ، لا تخف ولا تحزن وأبشر بالذي يسرك ، ويثبته بالقول الثابت أحوج ما يكون إليه في الحياة الدنيا ، وعند الموت ، وفي القبر عند المسألة .

فليس أحد أنفع للعبد من صحبة الملك له ، وهو وليه في يقظته ومنامه ، وحياته وعند موته وفي قبره ، ومؤنسه في وحشته وصاحبه في خلوته ، ومحدثه في سره ، يحارب عنه عدوه ، ويدافع عنه ، ويعينه عليه ، ويعده بالخير ويبشره



به ، ويحثه على التصديق بالحق ، كما جاء في الأثر الذي يروى مرفوعا وموقافا إن للملك بقلب بن آدم لمة[1] وللشيطان لمة ، فلمة الملك إيعاد بالخير وتصديق بالوعد ، ولمة الشيطان ، إيعاد بالشر وتكذيب بالحق .

وإذا إشتد قرب الملك من العبد ، تكلم على لسانه ، وألقى على لسانه القول السديد ، وإذا بعد عنه وقرب منه الشيطان تكلم على لسانه ، وألقى عليه قول الزور والفحش ، حتى يرى الرجل يتكلم على لسانه الملك ، والرجل يتكلم على لسانه الشيطان . وفي الحديث : إن السكينة تنطق على لسان عمر رضي ٱلله عنه وكان أحدهم يسمع الكلمة الصالحة من الرجل الصالح فيقول : ما ألقاها على لسانك إلا الملك ، ويسمع ضدها فيقول : ما ألقاها على لسانك إلا الشيطان : فالملك يلقي بالقلب الحق ، ويلقيه على اللسان ، والشيطان يلقي الباطل في القلب ، ويجريهن على اللسان .

فمن عقوبة المعاصي : أنها تبعد العبد عن وليه الذي سعادته في قربه ومجاورته وموالاته ، وتدني منه عدوه الذي شقاؤه وهلاكه وفساده في قربه وموالاته ، حتى إن الملك لينافح[2] عن العبد ، ويرد عنه إذا سفه عليه السفيه وسبه ، كما إختصم بين يدي النبي ﷺ رجلان : فجعل أحدهما يسب الآخر ، وهو ساكت : فتكلم بكلمة يرد بها على صاحبه ، فقام النبي ﷺ ، فقال يا رسول ٱلله لما رددت عليه بعض قوله قمت ، فقال : كان الملك ينافح عنك ، فلما رددت عليه جاء الشيطان فلم أكن لأجلس .

وإذا دعى العبد المسلم لأخيه بظهر الغيب أمَّن الملك على دعائه وقال : لك بمثله . وإذا فرغ من قراءة الفاتحة أمنت الملائكة على دعائه ، وإذا أذنب

---

(١) اللمة : بفتح اللام من ألم به نزل به نزولا خفيفا ومعناه الخطرة في القلب .

(٢) ينافح عنه : يدافع عنه .

العبد المؤمن الموحد المتبع لسبيله وسنة رسوله ﷺ إستغفر له حملة العرش ومن حوله ، وإذا نام على وضوء بات في شعاره[٣] ملك . فملك المؤمن يرد عنه ويحارب ويدافع عنه ويعلمه ويثبته ويشجعه ، فلا يليق به أن يسيء جواره ، ويبالغ في أذاه وطرده وإبعاده ، فإنه ضيفه وجاره ، وإذا كان إكرام الضيف من الآدميين والإحسان إلى الجار من لوازم الإيمان وموجباته ، فما الظن بإكرام أكرم الأضياف ، وخير الجيران وأبرهم ، وإذا آذى العبد الملك بأنواع المعاصي والظلم والفواحش دعا عليه ربه ، وقال : لا جزاك ٱلله خيرا . كما يدعو له إذا أكرمه بالطاعة والإحسان . قال بعض الصحابة رضي ٱلله عنهم : إن معكم من لا يفارقكم فاستحيوا منهم وأكرموهم : ولا ألأم ممن لا يستحي من الكريم العظيم القدر ، ولا يجله ولا يوقره ، وقد نبه سبحانه على هذا المعنى بقوله : ﴿ وإن عليكم لحافظين ، كراما كاتبين ، يعلمون ما تفعلون ﴾ أي إستحيوا من هؤلاء الحافظين الكرام وأكرموهم ، وأجلوهم أن يروا منكم ما تستحيون أن يراكم عليه من هو مثلكم ، والملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم ، فإذا كان إبن آدم يتأذى ممن يفجر ويعصي بين يديه ، وإن كان قد يعمل مثل عمله ، فما الظن بأذى الملائكة الكرام الكاتبين ، وٱلله المستعان .

علل القلب المهلكة في الدنيا والآخرة

فاستحضر بعض العقوبات التي رتبها ٱلله سبحانه وتعالى على الذنوب ، وجوز وصول بعضها إليك ، واجعل ذلك داعيا للنفس إلى هجرانها ، وأنا أسوق لك منها طرفا يكفي العاقل مع التصديق ببعضه .

فمنها : الختم على القلوب والأسماع ، والغشاوة على الأبصار ، والأقفال على

(٣) الشعار : ما يلي الجسم من الثياب .





القلوب ، وجعل الأكنة[1] عليها ، والرين عليها والطبع ، وتقلب الأفئدة والأبصار ، والحيلولة بين المرأ وقلبه ، وإغفال القلب عن ذكر الرب ، وإنساء الإنسان نفسه وترك إرادة الله تطهير القلب ، وجعل الصدر ضيقا حرجا ، كأنما يصعد في السماء ، وصرف القلوب عن الحق ، وزيادتها مرضا على مرضها ، وإركاسها وإنكاسها ، بحيث تبقى منكوسة ، كما ذكر الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أنه قال : القلوب أربعة : فقلب أجرد فيه سراج يزهر ، فذلك قلب المؤمن ، وقلب أغلف[2] فذلك قلب الكافر ، وقلب منكوس ، فذلك قلب المنافق ، وقلب تمده مادتان : مادة إيمان ، ومادة نفاق ، وهو لما غلب عليه منها .

ومنها : التثبيط عن الطاعة ، والإقعاد عنها .

ومنها جعل القلب أصم لا يسمع الحق ، أبكم لا ينطق به ، أعمى لا يراه ، فتصير النسبة بين القلب وبين الحق الذي لا ينفعه غيره ، كالنسبة بين أذن الأصم والأصوات ، وعين الأعمى والألوان ، ولسان الأخرس والكلام ، وبهذا يعلم أن العمى والصمم والبكم للقلب بالذات الحقيقة ، وللجوارح بالعرض والتبعية ﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ وليس المراد نفي العمى الحسي عن البصر ، كيف وقد قال تعالى : ﴿ ليس على الأعمى حرج ﴾ وقال : ﴿ عبس وتولى ، أن جاءه الأعمى ﴾ وأنما المراد أن العمى التام في الحقيقة عمى القلوب حتى إن عمى البصر بالنسبة إليه كلاعمى ، حتى إنه يصح نفيه بالنسبة إلى كماله وقوته ، كما قال النبي ﷺ : « ليس الشديد بالصرعة ولكنه الذي يملك نفسه عند

---

(١) الأكنة : الأغطية .

(٢) أي مغشى مغطى بالأهواء والجهل والتقليد والشهوات ، قد أغلق عليه فلا يستمع لداعي الحق ولا يستيقظ بآيات الله ومواعظه .



الغضب » وقوله ﷺ : « ليس المسكين بالطواف الذي ترده اللقمة واللقمتان ، ولكن المسكين الذي لا يسأل الناس ، ولا يفطن له فيتصدق عليه » . ونظائره كثيرة .

والمقصود : أن من عقوبات المعاصي جعل القلب أعمى أصم أبكم .

ومنها : الخسف بالقلب كما يخسف بالمكان وما فيه : فيخسف به إلى أسفل السافلين، وصاحبه لا يشعر، وعلامة الخسف به: أنه لا يزال جوالا حول السفليات والقاذورات والرذائل ، كما أن القلب الذي رفعه آلله وقربه إليه لا يزال جوالا حول العرش . ومنها البر والخير ومعالى الأعمال والأقوال والأخلاق . قال بعض السلف : إن هذه القلوب جوالة ، فمنها ما يجول حول العرش ، ومنها ما يجول حول الحش .

ومنها : مسخ القلب ، فيمسخ كما تمسخ الصورة ، فيصير القلب على قلب الحيوان الذي شابهه في إخلاقه وأعماله وطبيعته ، فمن القلوب ما يمسخ على قلب خنزير لشدة شبه صاحبه به ، ومنها ما يمسخ على قلب كلب أو حمار أو حية أو عقرب وغير ذلك ، وهذا تأويل سفيان بن عيينه في قوله تعالى : ﴿ وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ﴾ قال : منهم من يكون على أخلاق السباع العادية ، ومنهم من يكون على أخلاق الكلاب وأخلاق الخنازير وأخلاق الحمير ، ومنهم من يتطوس في ثيابه كما يتطوس الطاووس في ريشه ، ومنهم من يكون بليدا كالحمار ، ومنهم من يؤثر على نفسه كالديك ، ومنهم من يألف ويؤلف كالحمام ، ومنهم الحقود كالجمل ، ومنهم الذي هو خير كله كالغنم ، ومنهم أشباه الثعالب التي تروغ كروغانها ، وقد شبه آلله تعالى أهل الجهل والغي بالحمر تارة ، وبالكلب تارة ، وبالأنعام تارة ، وتقوى هذه المشابهة باطنا حتى تظهر في الأعمال ظهورا يراه كل أحد ولا يزال يقوى حتى تستشنع الصورة ، فتنقلب له الصورة بإذن آلله ، وهو



المسخ التام ، فيقلب آلله سبحانه وتعالى الصورة الظاهرة على صورة ذلك الحيوان ، كما فعل باليهود وأشباههم ، ويفعل بقوم من هذه الأمة يمسخهم قردة وخنازير .

فسبحان آلله ، كم من قلب منكوس وصاحبه لا يشعر ، وقلب ممسوخ ، وقلب مخسوف به ، وكم من مفتون بثناء الناس عليه ، ومغرور بستر آلله عليه ، ومستدرج بنعم آلله عليه ، وكل هذه عقوبات وإهانات ، ويظن الجاهل أنها كرامة .

ومنها : مكر آلله بالماكر ، ومخادعته للمخادع ، واستهزاؤه بالمستهزىء ، وإزاغته القلب الزائغ عن الحق .

ومنها : نكس القلب حتى يرى الباطل حقا ، والحق باطلا ، والمعروف منكرا ، والمنكر معروفا ، ويفسد ويرى أنه يصلح ، ويصد عن سبيل آلله وهو يرى أنه يدعو إليها ، ويشتري الضلالة بالهدى ، وهو يرى أنه على الهدى ، ويتبع هواه وهو يزعم أنه مطيع لمولاه ، وكل هذا من عقوبات الذنوب الجارية على القلب .

ومنها : حجاب القلب عن الرب في الدنيا ، والحجاب الأكبر يوم القيامة ، كما قال آلله تعالى : ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ، كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ فمنعتهم الذنوب أن يقطعوا المسافة بينهم وبين قلوبهم ، فيصلوا إليها ، فيروا ما يصلحها ويزكيها ، وما يفسدها ويشقيها ، وأن يقطعوا المسافة بين قلوبهم وبين ربهم ، فتصل القلوب إليه ، فتفوز بقربه وكرامته ، وتقر به عينا وتطيب به نفسا ، بل كانت الذنوب حجابا بينهم وبين قلوبهم ، وحجابا بينهم وبين ربهم وخالقهم .

المعيشة الضنك[1] في الدنيا وفي البرزخ والعذاب في الآخرة

ومن عقوبات الذنوب : المعيشة الضنك في الدنيا وفي البرزخ ، والعذاب في الآخرة ، قال تعالى : ﴿ ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ وفسرت المعيشة الضنك بعذاب القبر ، ولا ريب أنه من المعيشة الضنك ، والآية تتناول ما هو أعم منه وإن كانت نكرة في سياق الإثبات ، فإن عمومها من حيث المعنى : فإنه سبحانه رتب المعيشة الضنك على الإعراض عن ذكره ، فالمعرض عنه له من ضنك المعيشة بحسب إعراضه ، وإن تنعم في الدنيا بأصناف النعم : ففي قلبه من الوحشة والذل والحسرات التي تقطع القلوب ، والأماني الباطلة والعذاب الحاضر ما فيه ، وإنما يواريه عنه سكرات الشهوات والفسق وحب الدنيا والرياسة ، وإن لم ينضم إلى ذلك سكر الخمر فسكر هذه الأمور أعظم من سكر الخمر ، فإنه يفيق صاحبه ويصحو ، وسكر الهوى وحب الدنيا لا يصحو صاحبه إلا إذا كان صاحبه في عسكر الأموات ، فالمعيشة الضنك لازمة لمن أعرض عن ذكر ٱلله الذي أنزله على رسوله ﷺ في دنياه وفي البرزخ ويوم معاده ، ولا تقر العين ، ولا يهدأ القلب ، ولا تطمئن النفس إلا بإلٰهها ومعبودها الذي هو الحق ، وكل معبود سواه باطل ، فمن قرت عينه بٱلله قرت به كل عين ، ومن لم تقر عينه بٱلله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات ، وٱلله تعالى إنما جعل الحياة الطيبة لمن آمن به وعمل صالحا كما قال تعالى : ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم

---

(١) المعيشة الضنك هي العيش الضيق ، يقال منزل ضنك وعيش ضنك ، مصدر يستوي فيه الواحد وما فوقه والمذكر والمؤنث .



بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ فضمن لأهل الإيمان والعمل الصالح الجزاء في الدنيا بالحياة الطيبة ، والحسنى يوم القيامة فلهم أطيب الحياتين ، فهم أحياء في الدارين .

ونظير هذا قوله تعالى : ﴿ للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين ﴾ ونظيرها قوله تعالى : ﴿ وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ، ويؤت كل ذي فضل فضله ﴾ ففاز المتقون المحسنون بنعيم الدنيا والآخرة ، وحصلوا على الحياة الطيبة في الدارين : فإن طيب النفس وسرور القلب وفرحه ولذته وابتهاجه وطمأنينته وانشراحه ونوره وسعته وعافيته من ترك الشهوات المحرمة والشبهات الباطلة ، هو النعيم على الحقيقة ، ولا نسبة لنعيم البدن إليه فقد كان يقول بعض من ذاق هذه اللذة : لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف .

وقال آخر : إنه ليمر بالقلب أوقات أقول فيها : إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب .

وقال آخر : إن في الدنيا جنة هي في الدنيا كالجنة في الآخرة فمن دخلها دخل تلك الجنة ، ومن لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة وقد أشار النبي ﷺ الى هذه الجنة بقوله : « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا ، قالوا : وما رياض الجنة قال : حلق الذكر » وقال : « ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة » .

ولا تضن أن قوله تعالى : ﴿ إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم ﴾ مختص بيوم المعاد فقط ، بل هؤلاء في نعيم في دورهم الثلاثة ، وهؤلاء في جحيم في دورهم الثلاثة ، وأي لذة ونعيم في الدنيا أطيب من بر

القلب ، وسلامة الصدر ، ومعرفة الرب تبارك وتعالى ومحبته ، والعمل على موافقته ، وهل العيش في الحقيقة إلا عيش القلب السليم ، وقد أثنى آلله سبحانه وتعالى على خليله عليه السلام بسلامة قلبه فقال : ﴿ وإن من شيعته لإبراهيم إذ جاء ربه بقلب سليم ﴾ وقال حاكيا عنه أنه قال : ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى آلله بقلب سليم ﴾ .

القلب السليم ، وبيان ما تتم به سلامته

القلب السليم : هو الذي سلم من الشرك والغل والحقد والحسد والشح والكبر ، وحب الدنيا والرياسة ، فسلم من كل آفة تبعده من آلله ، وسلم من كل شبهة تعارض خبره ، ومن كل شهوة تعارض أمره ، وسلم من كل إرادة تزاحم مراده ، وسلم من كل قاطع يقطع عن آلله ، فهذا القلب السليم في جنة معجلة في الدنيا ، وفي جنة في البرزخ ، وفي جنة يوم المعاد ولا تتم له سلامته مطلقا حتى يسلم من خمسة أشياء :

من شرك يناقض التوحيد ، وبدعة تخالف السنة ، وشهوة تخالف الأمر ، وغفلة تناقض الذكر ، وهوى يناقض التجريد والإخلاص .

وهذه الخمسة حجب عن آلله ، وتحت كل واحد منها أنواع كثيرة تتضمن أفرادا لا تنحصر ، ولذلك إشتدت حاجة العبد بل ضرورته إلى أن يسأل آلله أن يهديه الصراط المستقيم ، فليس العبد أحوج منه إلى هذه الدعوة ، وليس شيء أنفع له منها .[١]

---

(١) من الجواب الكافي .



الدعـــاء

نفعه ، مقاماته مع البلاء ، الإلحاح فيه ، الآفات المانعة من ترتب أثره ، أسباب إجابته ، الجمع بين الدعاء والقدر

الأذكار والآيات والأدعية التي يستشفي بها ويرقى بها ، هي في نفسها نافعة ، ولكن تستدعي قبول المحل ، وقوة همة الفاعل ، وتأثيره ، فمتى تخلف الشفاء كان لضعف تأثير الفاعل ، أو لعدم قبول المنفعل ، أو لمانع قوي فيه يمنع أن ينجع فيه الدواء . كما يكون في الأدوية والأدوات الحسية فإن عدم تأثيرها قد يكون لعدم قبول الطبيعة لذلك الدواء ، وقد يكون لمانع قوي يمنع من إقتضائه أثره ، فإن الطبيعة إذا أخذت الدواء بقبول تام كان انتفاع البدن به بحسب ذلك القبول . فكذلك القلب إذا أخذ الرقي والتعاويذ بقبول تام ، وكان للراقي نفس فعالة وهمة مؤثرة في إزالة الداء ، وكذلك الدعاء ، فإنه من أقوى الأسباب في دفع المكروه ، وحصول المطلوب ، ولكن قد يتخلف أثره عنه ، إما لضعفه في نفسه ــ بأن يكون دعاء لا يحبه الله ، لما فيه من العدوان ــ وأما لضعف القلب وعدم إقباله على الله وجمعيته عليه وقت الدعاء ، فيكون بمنزلة القوس الرخو جدا فإن السهم يخرج منه خروجا ضعيفا ، وإما لحصول المانع من الإجابة : من أكل الحرام ، ورين الذنوب على القلب ، واستلاء الغفلة والشهوة واللهو وغلبتها عليه . كما في مستدرك الحاكم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة . واعلموا أن الله لا يقبل دعاء من قلب غافل لاه » فهذا دواء نافع مزيل الداء ، ولكن غفلة القلب عن الله تبطل



قوته . وكذلك أكل الحرام يبطل قوته ويضعفها ، كما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « أيها الناس ، إن الله طيب ، لا يقبل إلا طيبا ، وأن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم ﴾ وقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ » ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث ، أغبر ، يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذي بالحرام ، فأنى يستجاب لذلك .

وذكر عبد الله بن الإمام أحمد في كتاب الزهد لأبيه : أصاب بني إسرائيل بلاء ، فخرجوا مخرجا ، فأوحى الله عز وجل إلى نبيهم أن أخبرهم : أنكم تخرجون إلى الصعيد بأبدان نجسة ، وترفعون إلي أكفا قد سفكتم بها الدماء ، وملأتم بها بيوتكم من الحرام ، الآن حين اشتد غضبي عليكم ، ولن تزدادوا مني إلا بعدا : وقال أبو ذر : يكفي من الدعاء مع البر ما يكفي الطعام من الملح .[1]

نفعه

والدعاء من أنفع الأدوية ، وهو عدو البلاء ، يدافعه ويعالجه ، ويمنع نزوله ، ويرفعه ، أو يخففه إذا نزل ، وهو سلاح المؤمن ، كما روى الحاكم في صحيحه من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الدعاء سلاح المؤمن وعماد الدين ، ونور السموات والأرض . »

---

(١) يريد أنه يكفي قليل الدعاء بشرط أن يكون الداعي تقيا نقيا برا وصل نفسه بربه بعمله الطيب وإخلاصه ، فإن كان كذلك أجاب الله دعاءه.

مقاماته مع البلاء

وله مع البلاء ثلاث مقامات :

أحدهما : أن يكون أقوى من البلاء فيدفعه .

الثاني : أن يكون أضعف من البلاء ، فيقوى عليه البلاء ، فيصاب به العبد ، ولكن قد يخففه وإن كان ضعيفا .

الثالث : أن يتقاوما ويمنع كل واحد منهما صاحبه .

وقد روى الحاكم في صحيحه من حديث عائشة رضي آلله عنها ، قالت : قال رسول آلله ﷺ : « لا يغنى حذر من قدر ، والدعاء يمنع مما نزل ومما لم ينزل ، وإن البلاء لينزل فيلقاه الدعاء فيعتلجان إلى يوم القيامة . »

وفيه أيضا من حديث بن عمر عن النبي ﷺ قال : « الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل فعليكم عباد آلله بالدعاء » وفيه أيضا من حديث ثوبان عن النبي ﷺ : « لا يرد القدر إلا الدعاء ، ولا يزيد في العمر إلا البر ، وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه » .

الإلحاح فيه

ومن أنفع الأدوية الإلحاح في الدعاء ، وقد روى بن ماجه في سننه من حديث أبي هريرة قال : قال رسول آلله ﷺ : « من لم يسأل آلله يغضب عليه » . وفي صحيح الحاكم من حديث أنس عن النبي ﷺ : « لا تعجزوا في الدعاء ، فإنه لا يهلك مع الدعاء أحد . وذكر الأوزاعي عن



الزهري عن عروة عن عائشة رضي آلله عنها قالت : قال رسول آلله ﷺ : « إن آلله يحب الملحين في الدعاء » . وفي كتاب الزهد للإمام أحمد عن قتادة قال : قال مورّق : ما وجدت للمؤمن مثلا إلا رجلا في البحر على خشبة ، فهو يدعو : يا رب يا رب ، لعل آلله عز وجل أن ينجيه .

الآفات المانعة من ترتب أثره

ومن الآفات التي تمنع ترتب أثر الدعاء عليه :

أن يستعجل العبد ، ويستبطيء الإجابة ، فيتحسر ويدع الدعاء . وهو بمنزلة من بذر بذرا أو غرس غرسا ، فجعل يتعهده ويسقيه ، فلما استبطأ كماله وإدراكه تركه وأهمله .

وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة أن رسول آلله ﷺ قال : « يستجاب لأحدكم ما لم يعجل ، يقول دعوت فلم يستجب لي » .

وفي صحيح مسلم عنه : « لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم ، ما لم يستعجل . قيل يا رسول آلله ما الإستعجال قال : يقول قد دعوت وقد دعوت ، فلم أر يستجاب لي فيستحسر ويدع الدعاء » .

وفي مسند أحمد من حديث أنس قال : قال رسول آلله ﷺ : « لا يزال العبد بخير ما لم يستعجل ، قالوا يا رسول آلله كيف يستعجل قال يقول ، قد دعوت ربي فلم يستجب لي » .

أسبـــاب إجابتـــه

إذا اجتمع مع الدعاء حضور القلب وجمعيته بكليته على المطلوب ، وصادف وقتا من أوقات الإجابة الستة وهو : الثلث الأخير من الليل ، وعند

الأذان ، وبين الأذان والإقامة ، وادبار الصلوات المكتوبة ، وعند صعود الإمام يوم الجمعة على المنبر حتى تقضى الصلاة من ذلك اليوم ، وآخر ساعة بعد العصر ، وصادف خشوعا في القلب ، وانكسارا بين يدي الرب ، وذلا له وتضرعا ورقة ، واستقبل الداعي القبلة ، وكان على طهارة ، ورفع يديه الى آلله تعالى ، وبدأ بحمد آلله والثناء عليه ، ثم ثني بالصلاة على محمد عبده ورسوله ﷺ ، ثم قدم بين يدي حاجته التوبة والإستغفار ، ثم دخل على آلله ، وألح عليه في المسألة ، وتملقه ودعاه رغبة ورهبة ، وتوسل اليه بأسمائه وصفاته وتوحيده ، وقدم بين يدي دعائه صدقة ، فإن هذا الدعاء ، لا يكاد يرد أبدا . ولا سيما إن صادف الأدعية التي أخبر النبي ﷺ أنها مظنة الإجابة أو أنها متضمنة للإسم الأعظم .

فمنها ما في السنن وفي صحيح ابن حبان من حديث عبد آلله بن بريدة عن أبيه أن رسول آلله ﷺ سمع رجلا يقو : اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت آلله لا الـه إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد . فقال : « لقد سأل آلله بالإسم الذي إذا سئل به أعطى ، وإذا دعى به أجاب . » وفي لفظ : « لقد سألت آلله بإسمه الأعظم . »

وفي السنن وصحيح ابن حبان أيضا من حديث أنس بن مالك أنه كان مع رسول آلله ﷺ جالسا ورجل يصلي ، ثم دعا فقال : اللهم إني أسألك بأن لك الحمد ، لا الـه إلا أنت المنان بديع السموات والأرض ، يا ذا الجلال والأكرام يا حي يا قيوم : فقال النبي ﷺ : « لقد دعى آلله باسمه العظيم ، الذي إذا دعي به أجاب ، وإذا سئل به أعطى » . وأخرج الحديثين الإمام أحمد في مسنده .

وفي جامع الترمذي ، من حديث أسماء بنت يزيد أن النبي ﷺ قال : « إسم آلله الأعظم في هاتين الآيتين : ﴿ والـهكم اله واحد لا الـه إلا هو

الرحمن الرحيم ﴾ وفاتحة آل عمران ﴿ ألم ، ٱللهُ لا إلٰه إلا هو الحي القيوم ﴾ » قال الترمذي : هذا حديث صحيح .

وفي مسند الإمام أحمد وصحيح الحاكم من حديث أبي هريرة وأنس بن مالك وربيعة بن عامر عي النبي ﷺ أنه قال : « ألظوا بيا ذا الجلال والإكرام » ، يعني تعلقوا بها وألزموها وداوموا عليها .

وفي جامع الترمذي من حديث أبي هريرة رضي ٱلله عنه أن النبي ﷺ كان إذا أهمه الأمر رفع رأسه الى السماء ، وإذا اجتهد في الدعاء قال « يا حي يا قيوم » .

وفيه أيضا من حديث أنس بن مالك قال : كان النبي ﷺ إذا حز به أمر قال : « يا حي يا قيوم ، برحمتك استغيث » .

وفي صحيح الحاكم من حديث أبي أمامة عن النبي ﷺ أنه قال : « إسم ٱلله الأعظم في ثلاث سور من القرآن : البقرة ، وآل عمران ، وطه » ، قال القاسم : فالتمستها فإذا هي آية ﴿ الحي القيوم ﴾ .

وفي جامع الترمذي وصحيح الحاكم من حديث سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ قال : « دعوة ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت ﴿ أن لا الٰه إلا أنت ، سبحانك ، إني كنت من الظالمين ﴾ إنه لم يدع بها مسلم في شيء قط إلا استجاب ٱلله له » قال الترمذي : حديث صحيح .

وفي مستدرك الحاكم أيضا من حديث سعد عن النبي ﷺ : « ألا أخبركم بشيء إذا نزل برجل منكم أمر مهم فدعا به يفرج ٱلله عنه ، دعاء ذي النون » .

وفي صحيحه أيضا عنه أنه سمع النبي ﷺ وهو يقول : « هل أدلكم على إسم ٱلله الأعظم ، دعاء يونس ، قال رجل : يا رسول ٱلله هل كانت ليونس خاصة ، فقال : ألا تسمع قوله تعالى : ﴿ فاستجبنا له ونجيناه من

الغم ، وكذلك ننجي المؤمنين ﴾ فأي مسلم دعا بها في مرضه أربعين مرة فمات في مرضه ذلك أعطي أجر شهيد ، وإن بريء منه بريء مغفورا له .

وفي الصحيحين من حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب « لا إلـه إلا الله العظيم الحليم ، لا إلـه إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات السبع ورب الأرض ورب العرش الكريم.»

وفي مسند الإمام أحمد من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : علمني رسول الله ﷺ إذا نزل بي كرب أن أقول : لا إلـه إلا الله الحليم الكريم ، سبحان الله وتبارك الله رب العرش العظيم ، والحمد لله رب العاملين .

وفي مسنده أيضا من حديث عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « ما أصاب أحد قط هم ولا حزن ، فقال : اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ، ناصيتي بيديك ، ماض في حكمك ، عدل في قضائك ، أسألك اللهم بكل إسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو علمته أحد من خلقك ، أو أنزلته في كتابك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ، ونور صدري ، وجلاء حزني ، وذهاب همي ، إلا أذهب الله عز وجل همه وحزنه ، وأبدله مكانه فرحا ، فقيل يا رسول الله ألا نتعلمها ، فقال : بلى ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها » . وقال ابن مسعود : ما كرب نبي من الأنبياء إلا استغاث بالتسبيح .

وذكر ابن أبي الدنيا في كتاب المجابين في الدعاء ، عن الحسن قال : كان رجل من أصحاب النبي ﷺ من الأنصار يكنى أبا معلق ، وكان تاجرا يتجر بمال له ولغيره ، يضرب به الآفاق ، وكان ناسكا ورعا ، فخرج مرة



فلقيه لص مقنع في السلاح ، فقال له : ضع ما معك ، فإني قاتلك قال : ما تريد من دمي شأنك بالمال ، قال : أما المال فلي ، ولست أريد إلا دمك ، فقال : أما اذ أبيت فذرني أصلي أربع ركعات قال : صل ما بدالك ، فتوضأ ثم صلى أربع ركعات ، فكان من دعائه في آخر سجوده أن قال : يا ودود يا ودود ، يا ذا العرش المجيد ، يا فعال لما تريد ، أسألك بعزك الذي لا يرام ، وبملكك الذي لا يضام ، وبنورك الذي ملأ أركان عرشك ، أن تكفيني شر هذا اللص ، يا مغيث أغثني (ثلاث مرات) فإذا هو بفارس قد أقبل بيده حربة قد وضعها بين أذني فرسه ، فلما بصر به اللص أقبل نحوه فطعنه فقتله ، ثم أقبل اليه فقال : قم فقال : من أنت بأبي أنت وأمي ، فقد أغاثني آلله بك اليوم ، فقال : أنا ملك من أهل السماء الرابعة ، دعوت بدعائك الأول فسمعت لأبواب السماء قعقعة ، ثم دعوت بدعائك الثاني فسمعت لأهل السماء ضجة ، ثم دعوت بدعائك الثالث فقيل لي : دعاء مكروب ، فسألت آلله أن يوليني قتله ، قال الحسن : فمن توضأ وصلى أربع ركعات ودعا بهذا الدعاء استجيب له مكروب أو غير مكروب .

والأدعية والتعوذات بمنزلة السلاح ، والسلاح بضاربه ، لا بحده فقط ، فمتى كان السلاح سلاحا تاما لا آفة به ، والساعد ساعد قوي ، والمانع مفقود ، حصلت به النكاية في العدو ، ومتى تخلف واحد من هذه الثلاثة تخلف التأثير: فإذا كان الدعاء في نفسه غير صالح، أو الداعي لم يجمع بين قلبه ولسانه في الدعاء أو كان ثم مانع من الإجابة لم يحصل الأثر .

الجمع بين الدعاء والقدر

هو أن هذا المقدور قدر بأسباب ، ومن أسبابه الدعاء فلم يقدر مجردا عن سببه ، ولكن قدر بسببه ، فمتى أتى العبد بالسبب وقع المقدور ، ومتى



لم يأت بالسبب إنتفى المقدور . وهذا كما قدر الشبع والري بالأكل والشرب ، وقدر الولد بالوطأ ، وقدر حصول الزرع بالبذر ، وقدر خروج نفس الحيوان بالذبح وكذلك قدر دخول الجنة بالأعمال ، ودخول النار بالأعمال .

وحينئذ فالدعاء من أقوى الأسباب ، فإذا قدر وقوع المدعو به بالدعاء لم يصح أن يقال : لا فائدة في الدعاء ، كما لا يقال : لا فائدة في الأكل والشرب وجميع الحركات والأعمال ، وليس شيء من الأسباب أنفع من الدعاء ، ولا أبلغ في حصول المطلوب . ولما كان الصحابة رضي ٱلله عنهم ، أعلم الأمة بٱلله ورسوله ﷺ وأفقههم في دينه كانوا أقوم بهذا السبب وشروطه وآدابه من غيرهم وكان عمر بن الخطاب رضي ٱلله عنه يستنصر به على عدوه وكان أعظم جنديه . وكان يقول لأصحابه : لستم تنصرون بكثرة ، وإنما تنصرون من السماء وكان يقول : إني لا أحمل هم الإجابة ، ولكن هم الدعاء فإذا الهمتم الدعاء فإن الإجابة معه ، وأخذ الشاعر هذا المعنى فنظمه فقال :

لو لم ترد نيل ما أرجو وأطلبه

من جود كفيك ما عودتني الطلبا

فمن ألهم الدعاء فقد أريد به الإجابة ، فإن ٱلله سبحانه يقول : ﴿ أدعوني أستجب لكم ﴾ وقال : ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ﴾ .

وفي سنن بن ماجه من حديث أبي هريرة قال : قال رسول ٱلله ﷺ : « من لم يسأل ٱلله يغضب عليه » وهذا يدل على أن رضاءه في سؤاله وطاعته ، وإذا رضي الرب تبارك وتعالى فكل خير في رضاه ، كما أن كل بلاء ومصيبة في غضبه .

وقد ذكر الإمام أحمد في كتاب الزهد أثرا : أنا ٱلله لا إلـٰه إلا أنا ، إذا



رضيت باركت ، وليس لبركتي منتهى ، وإذا غضبت لعنت ، ولعنتي تبلغ السابع من الولد .

وقد دل العقل والنقل والفطرة وتجارب الأمم ــ على إختلاف أجناسها وملكها ونحلها ــ على أن التقرب إلى رب العالمين ، وطلب مرضاته ، والبر والإحسان إلى خلقه من أعظم الأسباب الجالبة لكل خير ، وأضدادها من أكبر الأسباب الجالبة لكل شر ، فما استجلبت نعم آلله تعالى واستدفعت نقمه بمثل طاعته ، والتقرب اليه ، والإحسان إلى خلقه .

وقد رتب آلله سبحانه حصول الخيرات في الدنيا والآخرة وحصول الشرور في الدنيا والآخرة في كتابه على الأعمال ترتب الجزاء على الشرط ، والمعلول على العلة ، والمسبب على السبب ، وهذا في القرآن يزيد على ألف موضع ، فتارة يرتب الحكم الخبري الكوني والأمر الشرعي على الوصف المناسب له كقوله تعالى : ﴿ فلما آسفونا إنتقمنا منهم ﴾ وقوله : ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا ﴾ وتارة يرتبه عليه بصيغة الشرط والجزاء كقوله تعالى : ﴿ إن تتقوا آلله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم ﴾ وتارة يأتي بلام التعليل كقوله : ﴿ ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب ﴾ وتارة يأتي بباء السببية كقوله تعالى : ﴿ ذلك بما قدمت أيديكم ﴾ وقوله : ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ وقوله : ﴿ وبما كنتم تكسبون ﴾ وتارة يأتي بفاء السببية كقوله : ﴿ فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ﴾ وتارة يأتي بأداة لولا : الدالة على ارتباط ما قبلها بما بعدها كقوله : ﴿ فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون ﴾ وتارة يأتي بلو : الدالة على الشرط كقوله : ﴿ ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم ﴾ .

وبالجملة فالقرآن من أوله إلى آخره صريح في ترتب الجزاء بالخير والشر والأحكام الكونية والأمر به على الأسباب بل ترتب أحكام الدنيا والآخرة ومصالحهما ومفاسدهما على الأسباب والأعمال .

ومن تفقه هذه المسألة وتأملها حق التأمل إنتفع بها غاية النفع ، ولم يتكل على القدر جهلا منه ، وعجزا وتفريطا واضاعة ، فيكون توكله عجزا ، وعجزه توكلا ، بل الفقيه كل الفقيه الذي يرد القدر بالقدر ويدفع القدر بالقدر ، ويعارض القدر بالقدر ، بل لا يمكن الإنسان أن يعيش إلا بذلك ، فإن الجوع والعطش والبرد وأنواع المخاوف والمحاذير هي من القدر ، والخلق كلهم ساعون في دفع هذا القدر بالقدر ، وهكذا من وفقه آلله وألهمه رشده يدفع قدر العقوبة الأخروية بقدر التوبة والإيمان والأعمال الصالحة ، فهذا وزان القدر المخوف في الدنيا وما يضاده سواء ، فرب الدارين واحد ، وحكمته واحدة ، لا يناقض بعضها بعضا ، ولا يبطل بعضها بعضا ، فهذه المسألة من أشرف المسائل لمن عرف قدرها ، ورعاها حق رعايتها ، وآلله المستعان[1] .

الأسباب التي يندفع بها شر الحاسد والعائن والساحر

يندفع شر الحاسد عن المحسود بعشرة أسباب :

أحدها : التعوذ بآلله من شره، والتحصن به واللجأ اليه، وآلله تعالى سميع لإستعاذته ، عليم بما يستعيذ منه ، والسمع هنا المراد به ، سمع الإجابة ، لا السمع العام ، فهو مثل قوله : ﴿ سمع آلله لمن حمده ﴾ وقول

(١) من الجواب الكافي باختصار .



الخليل ﷺ : (إن ربي لسميع الدعاء) ومرة يقرنه بالعلم ، ومرة بالبصر ، لإقتضاء حال المستعيذ ذلك . فإنه يستعيذ به من عدو يعلم أن ٱلله يراه ، ويعلم كيده وشره ، فأخبر ٱلله تعالى هذا المستعيذ أنه سميع لإستعاذته ، أي مجيب عليم بكيد عدوه ، يراه ويبصره ، ليبسط أمل المستعيذ ، ويقبل بقلبه على الدعاء(٢) .

السبب الثاني : تقوى ٱلله ، وحفظه عند أمره ونهيه ، فمن أتقى ٱلله تولى ٱلله حفظه ، ولم يكله إلى غيره ، قال تعالى : ﴿ وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا ﴾ وقال النبي ﷺ لعبد ٱلله بن عباس : « احفظ ٱلله يحفظك ، واحفظ ٱلله تجده تجاهك ، فمن حفظ ٱلله حفظه ٱلله ، ووجده أمامه أينما توجه ، ومن كان ٱلله حافظه وأمامه فممن يخاف ومن يحذر .

السبب الثالث : الصبر على عدوه ، وأن لا يقاتله ولا يشكوه ولا يحدث نفسه بأذاه أصلا . فما نصر على حاسده وعدوه بمثل الصبر عليه ولا يستطل تأخيره وبغيه . فإنه كلما بغى عليه كان بغيه جندا وقوة للمبغي عليه المحسود يقاتل به الباغي نفسه . وهو لا يشعر . فبغيه سهام يرميها من نفسه إلى نفسه ، ولو رأى المبغي عليه ذلك لسره بغيه عليه . ولكن لضعف بصيرته لا يرى إلا صورة البغي ، دون آخره ومآله . وقد قال تعالى : ﴿ ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرنه ٱلله ﴾ فإذا كان ٱلله قد ضمن له النصر ، مع أنه قد استوفى حقه أولا ، فكيف بمن لم يستوف شيئا من حقه ، بل بغي عليه وهو صابر ، وما من الذنوب ذنب أسرع عقوبة من البغي وقطيعة

---

(٢) ذكر المؤلف هنا استطرادا حكمة من حكم القرآن في الإتيان بلفظ (السميع العليم) عند الإستعاذة من الشيطان والإتيان بلفظ (السميع البصير) عند الإستعاذة من شر الإنس وهي أن الشيطان نعلمه ولا نراه ، أما الإنس فأفعالهم ترى بالبصر .

الرحم . وقد سبقت سنة آلله : « أنه لو بغى جبل على جبل لجعل الباغي منهما دكا » .

السبب الرابع : التوكل على آلله . فمن يتوكل على آلله فهو حسبه والتوكل من أقوى الأسباب التي يدفع بها العبد ما لا يطيق من أذى الخلق وظلمهم وعدوانهم . وهو من أقوى الأسباب في ذلك فإن آلله حسبه ، أي كافيه . ومن كان آلله كافيه وواقيه فلا مطمع فيه لعدوه ، ولا يضره إلا أذى لابد منه . كالحر والبرد والجوع والعطش . وإما أن يضره بما يبلغ منه مراده فلا يكون أبدا . وفرق بين الأذى الذي هو في الظاهر إيذاء له وهو في الحقيقة إحسان اليه واضرار بنفسه ، وبين الضرر الذي يتشفى به منه . قال بعض السلف : جعل آلله لكل عمل جزاء من جنسه ، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته لعبده فقال : ﴿ ومن يتوكل على آلله فهو حسبه ﴾ ولم يقل نؤته كذا وكذا من الأجر كما قال في الأعمال ، بل جعل نفسه سبحانه كافي عبده المتوكل عليه وحسبه وواقيه ، فلو توكل العبد على آلله حق توكله وكادته السموات والأرض ومن فيهن لجعل له ربه مخرجا من ذلك ، وكفاه ونصره .

السبب الخامس : فراغ القلب من الإشتغال به والفكر فيه ، وأن يقصد أن يمحوه من باله كلما خطر له ، فلا يلتفت اليه ، ولا يخالفه ولا يملأ قلبه بالفكر فيه . وهذا من أنفع الأدوية ، وأقوى الأسباب المعينة على إندفاع شره ، فإن هذا بمنزلة من يطلبه عدوه ليمسكه ويؤذيه ، فإذا لم يتعرض له ولا تماسك هو واياه بل إنعزل عنه لم يقدر عليه . فإذا تماسكا وتعلق كل منهما بصاحبه حصل الشر ، وهكذا الأرواح سواء . فإذا علق روحه وشبثها به وروح الحاسد الباغي متعلقة به يقظة ومناما ، لا يفتر عنه ، وهو يتمنى أن تماسك الروحان ويتشبثا، فإذا تعلقت روح كل منهما بالأخرى عدم القرار، ودام الشر ، حتى يهلك أحدهما ، فإذا جبذ روحه منه وصانها عن الفكر



فيه والتعلق به ، وأن لا يخطره بباله . فإذا خطر بباله بادر إلى محو ذلك الخاطر ، والأشتغال بما هو أنفع له وأولى به ، بقي الحاسد الباغي يأكل بعضه بعضا فإن الحسد كالنار ، فإذا لم تجد ما تأكله اكل بعضها بعضا .
وهذا باب عظيم النفع لا يلقاه إلا أصحاب النفوس الشريفة والهمم العلية ، وبين الكيس الفطن وبينه حتى يذوق حلاوته وطيبه ونعيمه كأنه يرى من أعظم عذاب القلب والروح أشتغاله بعدوه ، وتعلق روحه به ، ولا يرى شيئا آلم لروحه من ذلك ، ولا يصدق بهذا إلا النفوس المطمئنة الوادعة اللينة ، التي رضيت بوكالة ٱلله لها ، وسكنت اليه ، واطمأنت به ، وعلمت أن ضمانه حق ، ووعده صدق ، وأنه لا أوفى بعهده من ٱلله ، ولا أصدق منه قيلا ، فعلمت أن نصره لها أقوى وأثبت وأدوم ، وأعظم فائدة من نصرها هي لنفسها ، أو نصر مخلوق مثلها لها ، ولا يقوى على هذا إلا بالسبب السادس .

وهو الإقبال على ٱلله ، والإخلاص له ، وجعل محبته ورضاه والإنابة اليه في محل خواطر نفسه ، وأمانيها تدب فيها دبيب تلك الخواطر شيئا فشيئا ، حتى يقهرها ويغمرها ويذهبها بالكلية ، فتبقى خواطره وهواجسه وأمانيه كلها في محاب الرب ، والتقرب اليه وتمليقه وترضيه ، واستعطافه وذكره ، كما يذكر المحب التام المحبة محبوبه المحسن اليه الذي قد إمتلأت جوانحه من حبه . فلا يستطيع قلبه إنصرافا عن ذكره ، ولا روحه إنصرافا عن محبته . فإذا صار كذلك فكيف يرضى لنفسه إن يجعل بيت أفكاره وقلبه معمورا بالفكر في حاسده والباغي عليه ، والطريق إلى الإنتقام منه ، والتدبير عليه . هذا ما لا يتسع له إلا قلب خراب لم تسكن فيه محبة ٱلله واجلاله وطلب مرضاته . بل إذا مسه طيف من ذلك واجتاز ببابه من خارج ، ناداه حرس قلبه : اياك وحمى الملك . إذهب إلى بيوت الخانات



التي كل من جاء حل فيها ، ونزل بها . مالك ولبيت السلطان الذي أقام عليه اليزك وأدار عليه الحرس ، وأحاطه بالسور ، قال تعالى حكاية عن عدوه إبليس : أنه قال :﴿ فبعزتك لأغونهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ فقال تعالى : ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ وقال : ﴿ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون إنما سلطانه على الذين يتولونه والذينهم به مشركون ﴾ وقال في حق الصديق يوسف ﷺ : ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ﴾ فما أعظم سعادة من دخل هذا الحصن . وصار داخل اليزك ، لقد آوى إلى حصن لا خوف على من تحصن به ولا ضيعة على من آوى اليه ، ولا مطمع للعدو في الدنو اليه منه . ﴿ وذلك فضل آلله يؤتيه من يشاء وآلله ذو الفضل العظيم ﴾ .

السبب السابع : تجريد التوبة إلى آلله من الذنوب التى سلطت عليه أعداءه . فإن آلله تعالى يقول : ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ﴾ وقال لخير الخلق وهم أصحاب نبيه دونه ﷺ : ﴿ أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم ﴾ . فما سلط على العبد من يؤذيه إلا بذنب يعلمه أولا يعلمه ، وما لا يعلمه العبد من ذنوبه أضعاف ما يعلمه منها. وما ينساه مما عمله أضعاف ما يذكره . وفي الدعاء المشهور : اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم . واستغفرك مما لا أعلم . فما يحتاج العبد إلى الإستغفار منه مما لا يعلمه أضعاف أضعاف ما يعلمه . فما سلط عليه مؤذ إلا بذنب ولقي بعض السلف رجل فأغلظ له ونال منه ، فقال له : قف حتى أدخل البيت ، ثم أخرج إليك . ودخل فسجد لله وتضرع إليه وتاب وأناب إلى ربه . ثم خرج إليه فقال له : ما صنعت فقال : تبت إلى آلله من الذنب الذي سلطك به



علي . فليس للعبد إذا بغى عليه وأوذي وتسلط عليه خصومه شيء أنفع له من التوبة النصوح .

وعلامة سعادته : أن يعكس فكره ونظره على نفسه وذنوبه وعيوبه ، فيشتغل بها وباصلاحها وبالتوبة منها . فلا يبقى فيه فراغ لتدبر ما نزل به ، بل يتولى هو التوبة واصلاح عيوبه ، وٱلله يتولى نصرته وحفظه والدفع عنه ولا بد . فما أسعده من عبد ، وما أبركها من نازلة نزلت به ، وما أحسن أثرها عليه ، ولكن التوفيق والرشد بيد ٱلله . لا مانع لما أعطى ، ولا معطي لما منع . فما كل أحد يوفق لهذا . لا معرفة به ، ولا ارادة له ، ولا قدرة عليه ، ولا حول ولا قوة إلا بٱلله .

السبب الثامن : الصدقة والإحسان ما أمكنه ، فإن لذلك تأثيرا عجيبا في دفع البلاء ، ودفع العين ، وشر الحاسد ، وَلَوْ لم يكن في هذا إلا بتجارب الأمم قديما وحديثا لكفى به . فما تكاد العين والحسد والأذى يتسلط على محسن متصدق ، وإذا أصابه شيء من ذلك كان معاملا فيه باللطف والمعونة والتأييد وكانت له فيه العافية الحميدة . فالمحسن المتصدق في خفارة إحسانه وصدقته ، عليه من ٱلله جنة واقية ، وحصن حصين . وبالجملة : فالشكر حارس النعمة من كل ما يكون سببا لزوالها . ومن أقوى الأسباب : حسد الحاسد والعائن ، فإنه لا يفتر ولا يني ولا يبرد قلبه حتى تزول النعمة عن المحسود فحينئذ يبرد أنينه ، وتنطفيء ناره ، لا أطفأها ٱلله . فما حرس العبد نعمة ٱلله عليه بمثل شكرها ، ولا عرضها للزوال بمثل العمل فيها بمعاصي ٱلله ، وهو كفران النعمة . وهو باب إلى كفران المنعم . فالمحسن المتصدق يستخدم جندا وعسكرا يقاتلون عنه وهو نائم على فراشه . فمن لم يكن له جند ولا عسكر ، وله عدو ، فإنه يوشك أن يظفر به عدوه ، وإن تأخرت مدة الظفر ، وٱلله المستعان .

السبب التاسع : وهو من أصعب الأسباب على النفس وأشقها عليها ، ولا يوفق له إلا من عظم حظه من آلله وهو إطفاء نار الحاسد والباغي والمؤذي بالإحسان إليه . فكلما ازداد أذى وشرا وبغيا وحسدا ، ازددت إليه إحسانا ، وله نصيحة ، وعليه شفقة ،وما أظنك تصدق بأن هذا يكون ، فضلا عن أن تتعاطاه ، فاسمع الآن قوله عز وجل ﴿ ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ، وما يلقاها إلا الذينَ صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم،وإمّا ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بآلله إنه هو السميع العليم ﴾ وقال : ﴿ أولائك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرأون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون ﴾ وتأمل حال النبي ﷺ إذ ضربه قومه حتى أدموه. فجعل يسلت الدم عنه ويقول : «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون » كيف جمع في هذه الكلمات اربع مقامات من الإحسان ، قابل بها اساءتهم العظيمة إليه . أحدها : عفوه عنهم ، والثاني : استغفاره لهم ، والثالث : اعتذاره عنهم بأنهم لا يعلمون ، والرابع : استعطافه لهم بإضافتهم إليه ، فقال : « اغفر لقومي » كما يقول الرجل لمن يشفع عنده فيمن يتصل به ، هذا ولدي ، هذا غلامي ، هذا صاحبي ، فهبه لي . واسمع الآن ما الذي يسهل هذا على النفس ، ويطيبه إليها وينعمها به .

إعلم أن لك ذنوبا بينك وبين آلله ، تخاف عواقبها ، وترجوه أن يعفو عنها ويغفرها لك ويهبها لك ، ومع هذا لا يقتصر على مجرد العفو والمسامحة ، حتى ينعم عليك ويكرمك ، ويجلب إليك من المنافع والإحسان فوق ما تؤمله ، فإذا كنت ترجو هذا من ربك ، وتحب أن يقابل به إساءتك فما أولاك وأجدرك أن تعامل به خلقه ، وتقابل به إساءتهم ليعاملك آلله تلك المعاملة ، فإن الجزاء من جنس العمل فكما تعمل مع الناس في إساءتهم في حقك يفعل آلله معك في ذنوبك واساءتك جزاءً وفاقا ، فانتقم بعد ذلك أو



أعف ، وأحسن أو أترك ، فكما تدين تدان وكما تفعل معه يفعل معك فمن تصور هذا المعنى ، وشغل به فكره ، هان عليه الإحسان إلى من أساء إليه ، وهذا مع ما يحصل له بذلك من نصر آلله ومعيته الخاصة ، كما قال النبي ﷺ للذي شكى إليه قرابته ، وأنه يحسن إليهم ، وهم يسيئون إليه فقال : « لا يزال معك من آلله ظهير ما دمت على ذلك » هذا مع ما يتعجله من ثناء الناس عليه ويصيرون كلهم معه على خصمه فإن كل من سمع إنه محسن إلى ذلك الغير، وهو مسيء إليه وجد قلبه ودعاءه وهمته مع المحسن على المسيء وذلك أمر فطري ، فطر آلله عليه عباده ، فهو بهذا الإحسان قد استخدم عسكرا لا يعرفهم ولا يعرفونه ولا يريدون منه اقطاعا ولا خبزا .

هذا مع أنه لا بد له مع عدوه وحاسده من أحدى حالتين : إما أن يملكه بإحسانه ، فيستعبده وينقاد له ويذل له ويبقى الناس إليه . وإما أن يفتت كبده ويقطع دابره ، إن أقام على إساءته إليه ، فإنه يذيقه بإحسانه أضعاف ما ينال منه بانتقامه ، ومن جرب هذا عرفه حق المعرفة ، وآلله هو الموفق والمعين ، بيده الخير كله ، لا اله غيره ، وهو المسؤول أن يستعملنا وإخواننا في ذلك بمنه وكرمه وفي الجملة ففي هذا المقام من الفوائد ما يزيد على مائة منفعة للعبد عاجلة وآجلة .

السبب العاشر : وهو الجامع لذلك كله ، وعليه مدار هذه الأسباب وهو تجريد التوحيد ، والترحل بالفكر في الأسباب إلى المسبب العزيز الحكيم ، والعلم بأن هذه الآلات بمنزلة حركات الرياح وهي بيد محركها ، وفاطرها وبارئها ، ولا تضر ولا تنفع إلا بإذنه فهو الذي يحسن عبده بها ، وهو الذي يصرفها عنه وحده لا أحد سواه ، قال تعالى : ﴿ وإن يمسسك آلله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير فلا راد لفضله ﴾ وقال النبي ﷺ لعبد



آلله بن عباس رضي آلله عنه « واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء كتبه آلله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء كتبه آلله عليك » فإذا جرد العبد التوحيد . فقد خرج من قلبه خوف ما سواه ، وكان عدوه أهون عليه من أن يخافه مع آلله ، بل يفرد آلله بالمخافة وقد أمن منه ، وخرج من قلبه اهتمامه به ، واشتغاله به بفكره فيه ، وتجرد لله محبة وخشية وإنابة وتوكلا ، واشتغالا به عن غيره ، فيرى أن إعماله فكره في أمر عدوه وخوفه منه واشتغاله به من نقص توحيده ، وإلا فلو جرد توحيده لكان له فيه شغل شاغل وآلله يتولى حفظه والدفع عنه ، ولا بد ، وإن مزج مزج له وإن كان مرة ومرة فآلله له مرة ومرة ، كما قال بعض السلف : من أقبل على آلله بكليته أقبل آلله عليه جملة ، ومن أعرض عن آلله بكليته أعرض آلله عنه جملة ومن كان مرة ومرة فآلله له مرة ومرة . فالتوحيد : حصن آلله الأعظم الذي من دخله كان من الآمنين ، قال بعض السلف : من خاف آلله خافه كل شيء ومن لم يخف آلله أخافه من كل شيء .

هذه عشرة أسباب يندفع بها شر الحاسد والعائن والساحر ، وليس له أنفع من التوجه إلى آلله واقباله عليه ، وتوكله عليه ، وثقته به ، وأن لا يخاف معه غيره ، بل يكون خوفه منه وحده ، ولا يرجو سواه ، بل يرجوه وحده ، فلا يعلق قلبه بغيره ، ولا يستغيث بسواه ، ولا يرجو إلا إياه ، ومتى علق قلبه بغيره ورجاه وخافه ، وكل إليه وخذل من جهته ، فمن خاف شيئا غير آلله سلط عليه ومن رجا شيئا سوى آلله خذل من جهته وحرم خيره ، هذه سنة آلله في خلقه ، ولن تجد لسنة آلله تبديلا .

الأسباب التي يعتصم بها العبد من الشيطان ويستدفع بها شره ويحترز بها منه

وقال قدس ٱلله روحه ونور ضريحه في آخر تفسير سورتي المعوذتين قاعدة نافعة ، فيما يعتصم به العبد من الشيطان ، ويستدفع به شره ويحترز به منه : وذلك عشرة أسباب :

أحدهما : الإستعاذة بٱلله من الشيطان ، قال تعالى : ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بٱلله إنه هو السميع العليم ﴾ وفي موضع آخر ﴿ إنه سميع عليم ﴾ .[1] والمراد بالسمع هاهنا سمع الإجابة لا مجرد السمع العام . وفي صحيح البخاري عن عدي بن ثابت عن سليمان بن صرد قال كنت جالسا مع النبي ﷺ ورجلان يستبان : فأحدهما أحمر وجهه وانتفخت أوداجه فقال النبي ﷺ .« إني لأعلم كلمة لو قالها ذهب عنه ما يجد ، لو قال : أعوذ بٱلله من الشيطان الرجيم لذهب عنه ما يجد » .

الحرز الثاني : قراءة هاتين السورتين ، فإن لهما تأثيرا عجيبا في الإستعاذة بٱلله من شره ودفعه والتحصن منه ولهذا قال النبي ﷺ : « ما تعوذ المتعوذون بمثلهما » وقد تقدم أنه كان يتعوذ بهما كل ليلة عند النوم ، وأمر عقبة أن يقرأ بهما دبر كل صلاة وتقدم قوله ﷺ : « إن من قرأهما مع سورة الإخلاص ثلاثا حين يمسي ، وثلاثا حين يصبح ، كفته من كل شيء » .

---

(١) وقد ذكر المؤلف سرا من أسرار القرآن العظيم في التفريق بين الآيتين وحاصله أن الأول أكد بعدة تأكيدات لأن العبد أمر فيه بأشق الأشياء على النفس وهو مقابلة إساءة المسيء بالإحسان إليه ، وفي الثاني أمر بالإعراض عنه : فراجعه .

الحرز الثالث : قراءة آية الكرسي ففي الصحيح من حديث محمد بن سيرين عي أبي هريرة قال : وكلني رسول آلله ﷺ بحفظ زكاة رمضان فأتى آت فجعل يحثو من الطعام ، فأخذته فقلت لأرفعنك إلى رسول آلله ﷺ فذكر الحديث إلى أن قال فقال : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي فإنه لن يزال عليك من آلله حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح ، فقال النبي ﷺ : « صدقك وهو كذوب ذاك الشيطان » .

الحرز الرابع : قراءة سورة البقرة : ففي الصحيح من حديث سهل بن عبد آلله عن أبي هريرة أن رسول آلله ﷺ قال : « لا تجعلوا بيوتكم قبورا وأن البيت الذي تقرأ فيه البقرة لا يدخله الشيطان » .

الحرز الخامس : خاتمة سورة البقرة، فقد ثبت في الصحيح من حديث أبي مسعود الأنصاري قال : قال رسول الله ﷺ : «من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه» وفي الترمذي عن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ قال : إن الله كتب كتابا قبل أن يخلق الخلق بألفي عام أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة فلا يقرآن في دار ثلاث ليال فيقربها شيطان الحرس السادس أول سورة حم المؤمن إلى قوله إليه المصير مع آية الكرسي ففي الترمذي من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر عن ابن أبي مليكة عن زرارة بن مصعب عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «من قرأ حم المؤمن إلى إليه المصير وآية الكرسي حين يصبح حفظ بهما حتى يمسي، ومن قرأهما حين يمسي حفظ بهما حتى يصبح» وعبد الرحمن المليكي، وإن كان قد تكلم فيه من قبل حفظه فالحديث له شواهد في قراءة آية الكرسي وهو محتمل على غرابته.

الحرز السابع : لا إلـه إلا آلله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير : مائة مرة ، ففي الصحيحين من حديث سمي مولى أبي بكر عن أبي صالح عن أبي هريرة أن رسول آلله ﷺ قال : « من



قال لا إلـٰه إلا ٱلله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة كانت له عدل عشرة رقاب وكتبت له مائة حسنة ومحت عنه مائة سيئة وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي » ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر من ذلك فهذا حرز عظيم النفع جليل الفائدة يسير سهل على من يسره ٱلله عليه .

الحرز الثامن : وهو أنفع الحروز من الشيطان : كثرة ذكر ٱلله عز وجل ، ففي الترمذي من حديث الحارث الأشعري أن النبي ﷺ قال : « إن ٱلله أمر يحي بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها ، ويأمر بني أسرائيل أن يعملوا بها ، وإنه كاد أن يبطيء بها فقال عيسى : إن ٱلله أمرك بخمس كلمات لتعمل بها ، وتأمر بني اسرائيل أن يعملوا بها ، فإما أن تأمرهم وإما أن آمرهم ، فقال يحي : أخشى إن سبقتني بها أن يخسف بي أو أعذب فجمع الناس في بيت المقدس فامتلأ ، وقعدوا على الشرف ، فقال : إن ٱلله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن أولهن أن تعبدوا ٱلله ولا تشركوا به شيئا ، وإن مثل من اشرك بٱلله كمثل رجل اشترى عبدا من خالص ماله بذهب او ورق فقال هذه داري وهذا عملي فاعمل وأدّ إلى فكان يعمل ويؤدي إلى غير سيده ، فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك ، وإن ٱلله أمركم بالصلاة فإذا صليتم فلا تلتفتوا فإن ٱلله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت ، وأمركم بالصيام ، فإن مثل ذلك كمثل رجل في عصابة معه صرة فيها مسك ، فكلهم يعجب أو يعجبه ريحها ، وإن ريح الصائم أطيب عند ٱلله من ريح المسك . وأمركم بالصدقة ، فإن مثل ذلك كمثل رجل اسره العدو فأوثقوا يده إلى عنقه ، وقدموه ليضربوا عنقه ، فقال: أنا أفتدي منكم بالقليل والكثير ففدى نفسه منهم. وأمركم أن تذكروا ٱلله فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في اثره سراعا ،



حتى أتى على حصن حصين فاحرز نفسه منهم ، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر آلله ، قال النبي ﷺ : « وأنا آمركم بخمس آلله أمرني بهن : السمع ، والطاعة ، والجهاد، والهجرة ، والجماعة فإن من فارق الجماعة قيد شبر ، فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه ، إلا أن يراجع ، ومن إدعى دعوى الجاهلية فإنه من جثاء جهنم فقال رجل : يا رسول آلله وإن صلى وصام ، قال : وإن صلى وصام ، فادعوا بدعوى آلله الذي سماكم المسلمين المؤمنين عباد آلله » قال الترمذي : هذا حديث حسن غريب صحيح ، وقال البخاري : الحارث الأشعري له صحبة وله غير هذا الحديث . فقد أخبر النبي ﷺ في هذا الحديث أن العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر آلله ، وهذا بعينه هو الذي دلت عليه سورة ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ فإنه وصف الشيطان فيها بأنه الخناس، والخناس الذي إذا ذكر العبد إنخنس ، وتجمع ، وانقبض ، وإذا غفل عن ذكر الله التقم القلب وألقى إليه الوساوس التي هي مباديء الشر كله ، فما أحرز العبد نفسه من الشيطان بمثل ذكر آلله عز وجل .

الحرز التاسع : الوضوء والصلاة ، وهذا من أعظم ما يتحرز به منه ولا سيما عند توارد قوة الغضب والشهوة ، فإنها نار تغلي في قلب إبن آدم ، كما في الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال : « ألا وإن الغضب جمرة في قلب إبن آدم ، أما رأيتم إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه فمن أحس بشيء من ذلك فيلصق بالأرض » وفي أثر آخر : إن الشيطان خلق من نار وإنما تطفأ النار بالماء ، فما أطفأ العبد جمرة الغضب والشهوة بمثل الوضوء والصلاة ، فإنها نار والوضوء يطفأها ، والصلاة إذا وقعت بخشوعها والإقبال فيها على آلله أذهبت أثر ذلك كله ، وهذا أمر تجربتـه تغني عن اقامة الدليل عليه .



الحرز العاشر : إمساك فضول النظر والكلام والطعام ، ومخالطة الناس ، فإن الشيطان إنما يتسلط على إبن آدم ، وينال منه غرضه : من هذه الأبواب الأربعة ، فإن فضول النظر يدعو إلى الإستحسان ، ووقوع صورة المنظور إليه في القلب ، والإشتغال به ، والفكرة في الظفر به فمبدأ الفتنة من فضول النظر ، كما في المسند عن النبي ﷺ أنه قال : « النظرة سهم مسموم من سهام إبليس ، فمن غض بصره لله أورثه آلله حلاوة يجدها في قلبه إلى يوم يلقاه » أو كما قال ﷺ : « فالحوادث العظام إنما هي كلها من فضول النظر » . فكم نظرة أعقبت حسرات لا حسرة . كما قال الشاعر :

كل الحوادث مبداها من النظر ومعظم النار من مستصغر الشرر
كم نظرة فتكت في قلب صاحبها فتك السهام بلا قوس ولا وتر

وقال آخـــر

وكنت متى أرسلت طرفك رائدا لقلبك يوما اتعبتك المناظر
رأيت الذي لا كله أنت قادر عليه ولا عن بعضه أنت صابر

والمقصود : إن فضول النظر أصل البلاء .

وأما فضول الكلام : فإنها تفتح للعبد أبوابا من الشر كلها مداخل للشيطان ، فإمساك فضول الكلام يسد عليه تلك الأبواب كلها ، وكم من حرب جرتها كلمة واحدة . وقد قال النبي ﷺ لمعاذ : « وهل يكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم » وفي الترمذي : إن رجلا من الأنصار توفي فقال بعض الصحابة : طوبى له ، فقال النبي ﷺ : « فما يدريك فلعله تكلم بما لا يعنيه ، أو بخل بما لا ينقصه » . وأكثر المعاصي : إنما يولدها فضول الكلام والنظر ، وهما أوسع مداخل الشيطان ، فإن جارحتيهما لا يملان ولا يسأمان بخلاف شهوة الباطن ، فإنه إذا امتلأ لم يبق فيه ارادة للطعام ، وأما العين واللسان : فلو تركا لم يفترا من النظر



والكلام ، فجنايتها متسعة الأطراف ، كثيرة الشعب ، عظيمة الآفات وكان السلف يحذرون من فضول النظر ، كما يحذرون من فضول الكلام ، كانوا يقولون : ما شيء أحوج إلى طول السجن من اللسان .

وأما فضول الطعام : فهو داع إلى أنواع كثيرة من الشر ، فإنه يحرك الجوارح إلى المعاصي ، ويثقلها عن الطاعات ، وكم من طاعة حال دونها ، فمن وقي شر بطنه ، فقد وقي شرا عظيما . والشيطان أعظم ما يتحكم من الإنسان إذا ملأ بطنه من الطعام . ولهذا جاء في بعض الآثار : ضيقوا مجاري الشيطان بالصوم ، وقال النبي ﷺ : « ما ملأ آدمي وعاء شرا من بطن » . ولو لم يكن في الإمتلاء من الطعام إلا أنه يدعو إلى الغفلة عن ذكر آلله عز وجل ، وإذا غفل القلب عن الذكر ساعة واحدة جثم عليه الشيطان ووعده ومناه وشهاه ، وهام به في كل واد ، فإن النفس إذا شبعت تحركت وجالت ، وطافت على أبواب الشهوات ، وإذا جاعت سكنت وخشعت وذلت[1] .

وأما فضول المخالطة : فهي الداء العضال الجالب لكل شر ، وكم سلبت المخالطة والمعاشرة من نعمة ، وكم زرعت من عداوة ، وكم غرست في القلب من حزازات تزول الجبال الراسيات ، وهي في القلب لا تزول ، ففي فضول المخالطة خسارة الدنيا والآخرة . وإنما ينبغي للعبد أن يأخذ من المخالطة بمقدار

---

(١) ليس كل جوع وكل شبع ، فلقد كان الرسول ﷺ يأكل ما يجد ، فإن لم يجد شيئا قال : إني صائم . وليست فائدة الصيام في الجوع ، ففي الحديث : من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه ، وإنما حكمة الصيام وثمرته : طول الإقامة مع آلله في تلك العبادة ، فتتربي النفس على الحزم وقوة العزيمة ، ويقوى العقل فينفذ سلطانه على الحيوانية ، ولم يتعبدنا آلله بالجوع ولا بالظمأ ، فإن خزائنه ملأى ، ويده سحاء الليل والنهار لا يغيظها عطاء . من تعليق محمد حامد الفقي وهو تنبيه حسن وليس في كلام بن القيم رحمه آلله ما ينفيه .



الحاجة . ويجعل الناس فيها أربعة أقسام : متى خلط أحد الأقسام بالآخر ولم يميز بينهما دخل عليه الشر .

أحدها : من مخالطته كالغذاء لا يستغنى عنه في اليوم والليلة . فإذا أخذ حاجته منه ترك الخلطة ، ثم إذا احتاج إليه خالطه هكذا على الدوام . وهذا الضرب أعز من الكبريت الأحمر وهم العلماء بالله وأمره ، ومكايد عدوه ، وأمراض القلب وأدويتها الناصحون لله ولكتابه ولرسوله ولخلقه . فهذا الضرب في مخالطتهم الربح كل الربح .

القسم الثاني : من مخالطته كالدواء ، يحتاج إليه عند المرض فما دمت صحيحا فلا حاجة لك في خلطته ، وهم من لا يستغنى عن مخالطتهم في مصلحة المعاش ، وقيام ما أنت محتاج إليه من أنواع المعاملات والمشاركات والاستشارة والعلاج للأدواء ونحوها فإذا قضت حاجتك من مخالطة هذا الضرب بقيت مخالطتهم من .

القسم الثالث : وهم من مخالطتهم كالداء على اختلاف مراتبه وأنواعه وقوته وضعفه .

فمنهم من مخالطته كالداء العضال ، والمرض المزمن ، وهو من لا تربح عليه في دين ولا دنيا ، ومع ذلك فلا بد من أن تخسر عليه الدين والدنيا أو أحدهما ، فهذا إذا تمكنت منك مخالطته واتصلت ، فهي مرض الموت المخوف .

ومنهم من مخالطته كوجع الضرس ، يشتد ضربه عليك ، فإذا فارقك سكن الألم .

ومنهم من مخالطته حمى الروح ، وهو الثقيل البغيض العقل ، الذي لا يحسن أن يتكلم فيفيدك ، ولا يحسن أن يتكلم فيفيدك ، ولا يحسن أن ينصت فيستفيد منك ولا يعرف نفسه فيضعها في منزلتها ، بل إن تكلم فكلامه كالعصى تنزل على قلوب السامعين ، مع إعجابه بكلامه وفرحه به ، فهو



يحدث من فيه كلما تحدث ، ويظن أنه مسك يطيب به المجلس ، وإن سكت فأثقل من نصف الرحا العظيمة التي لا يطاق حملها ولا جرها على الأرض ويذكر عن الشافعي رحمه الله أنه قال : ما جلس إلى جانبي ثقيل إلا وجدت الجانب الذي يليه أنزل من الجانب الآخر .

ورأيت يوما عند شيخنا قدس الله روحه رجلا من هذا الضرب ، والشيخ يحمله ، وقد ضعفت القوى عن حمله ، فالتفت إلي وقال : مجالسة الثقيل حمى الربع ، ثم قال : لكن قد أدمنت أرواحنا على الحمى ، فصارت لها عادة أو كما قال :

وبالجملة : فمخالطة كل مخالف حمى للروح ، فعرضية ولازمة .

ومن نكد الدنيا على العبد أن يبتلى بواحد من هذا الضرب ، وليس له بد من معاشرته ومخالطته فليعاشره بالمعروف ، حتى يجعل الله له من أمره فرجا ومخرجا .

القسم الرابع : من مخالطته الهلك كله ومخالطته بمنزلة أكل السم ، فان اتفق لآكله ترياق ، وإلا فأحسن الله فيه العزاء ، وما أكثر هذا الضرب في الناس لا كثرهم الله . وهم أهل البدع والضلالة ، الصادون عن سنة رسول الله ﷺ الداعون إلى خلافها ، الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا ، فيجعلون البدعة سنة ، والسنة بدعة ، والمعروف منكرا ، والمنكر معروفا . إن جردت التوحيد بينهم قالوا : تنقصت جناب الأولياء والصالحين . وإن جردت المتابعة لرسول الله ﷺ قالوا : أهدرت الأئمة المتبوعين ، وإن وصفت الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير غلو ولا تقصير قالوا : أنت من المشبهين . وإن أمرت بما أمر الله به ورسوله من المعروف ونهيت عما نهى الله عنه ورسوله من المنكر قالوا : أنت من المفتونين ، وإن اتبعت السنة وتركت ما خالفها قالوا : أنت من أهل البدع المضلين ، وإن انقطعت إلى الله تعالى ،

وخليت بينهم وبين جيفة الدنيا ، قالوا : أنت من الملبسين ، وإن تركت ما أنت عليه واتبعت أهواءهم فأنت عند الله من الخاسرين وعندهم من المنافقين .

فالحزم كل الحزم : التماس مرضاة الله تعالى ورسوله بإغضابهم ، وأن لا تشتغل بأعتابهم ، ولا باستعتابهم ، ولا تبالي بذمهم ولا بغضهم فإنه عين كمالك كما قال :

وإذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني فاضل

وقال آخر

وقد زادني حبا لنفسي أنني بغيض إلى كل امريء غير طائل

فمن أيقظ بواب قلبه وحارسه من هذه المداخل الأربعة التي هي أصل بلاء العالم ، وهي : فضول النظر ، والكلام ، والطعام ، والمخالطة واستعمل ما ذكرناه من الأسباب التسعة التي تحرزه من الشيطان فقد أخذ بنصيبه من التوفيق . وسد عن نفسه أبواب جهنم ، وفتح عليها أبواب الرحمة ، وانغمر ظاهره وباطنه ، ويوشك أن يحمد عند الممات عاقبة هذا الدواء ، فعند الممات يحمد القوم التقي . وفي الصباح يحمد القوم السرى ، والله الموفق لا رب غيره ولا إله سواه .[1]

امتحان الله الخلق بعضهم ببعض

قال الله تعالى : ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ قال مقاتل : أي بلاء وشغل عن الآخرة . قال بن عباس : فلا تطيعوهم في معصية الله تعالى وقال

(١) من التفسير القيم .



الزجاج : أعلمهم آلله عز وجل أن الأموال والأولاد مما يفتنون به ، وهذا عام في جميع الأولاد ، فإن الإنسان مفتون بولده لأنه ربما عصى آلله بسببه ، وتناول الحرام لأجله ، ووقع في العظائم إلا من عصمه آلله تعالى . ويشهد لهذا ما روي أن النبي ﷺ كان يخطب ، فجاء الحسن والحسين ، رضي آلله عنهما ، وعليهما قميصان أحمران يعثران ، فنزل النبي ﷺ إليهما فأخذهما فوضعهما في حجره على المنبر ، وقال : « صدق آلله ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ رأيت هذين الصبيين فلم أصبر عنهما » .

وقال ابن مسعود رضي آلله عنه : لا يقولن أحدكم : اللهم إني أعوذ بك من الفتنة ، فإنه ليس منكم أحد إلا وهو مشتمل على فتنة ، لأن آلله تعالى يقول :

﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ فأيكم استعاذ فليستعذ بآلله تعالى من مضلات الفتن .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وجعلنا بعضكم لبعض فتنة ﴾ وهذا عام في جميع الخلق إمتحن آلله بعضهم ببعض ، فامتحن الرسل بالمرسل إليهم ودعوتهم إلى الحق والصبر على أذاهم ، وتحمل المشاق في تبليغهم رسالات ربهم وامتحن المرسل إليهم بالرسل ، وهل يطيعونهم ، وينصرونهم ويصدقونهم ، أم يكفرون بهم ، ويردون عليهم ، ويقاتلونهم ، وامتحن العلماء بالجهال ، هل يعلمونهم ، وينصحونهم ، ويصبرون على تعليمهم ونصحهم ، وارشادهم ، ولوازم ذلك ، وامتحن الجهال بالعلماء ، هل يطيعونهم ويهتدون بهم ، وامتحن الملوك بالرعية ، والرعية بالملوك ، وامتحن الأغنياء بالفقراء ، والفقراء بالأغنياء ، وامتحن الضعفاء بالأقوياء ، والأقوياء بالضعفاء ، والسادة بالأتباع ، والأتباع بالسادة ، وامتحن المالك بمملوكه ومملوكه به ، وامتحن الرجل بإمرأته ، وامرأته به ، وامتحن الرجال بالنساء ، والنساء بالرجال ، والمؤمنين بالكفار ، والكفار بالمؤمنين ، وامتحن الآمرين بالمعروف بمن يأمرونهم ، وامتحن المأمورين بهم ،

ولذلك كان فقراء المؤمنين وضعفاؤهم من أتباع الرسل ، فتنة لأغنيائهم ورؤساءهم ، إمتنعوا من الإيمان بعد معرفتهم بصدق الرسل ، وقالوا : لو كان خيرا ما سبقونا إليه هؤلاء ، وقالوا لنوح عليه السلام : أنؤمن لك واتبعك الأرذلون قال تعالى : ﴿ وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من آلله عليهم من بيننا ﴾ فإذا رأى الشريف والرئيس المسكين الذليل قد سبقه إلى الإيمان ومتابعة الرسول حمي وأنف أن يسلم فيكون مثله وقال : أسلم فأكون أنا وهذا الوضيع على حد سواء . قال الزجاج : كان الرجل الشريف ربما أراد الإسلام فيمتنع منه ، لئلا يقال : أسلم قبله من هو دونه ، فيقيم على كفره لئلا يكون للمسلم السابقة عليه في الفضل .

ومن كون بعض الناس لبعض فتنة : أن الفقير يقول لم لم أكن مثل الغني ، ويقول الضعيف : هلا كنت كثل القوي ، ويقول المبتلى هلا كنت مثل المعافى ، وقال الكفار : ﴿ لن نؤمن حتى نؤتي مثل ما أوتي رسل آلله ﴾ قال مقاتل : نزلت في افتتان المشركين بفقراء المهاجرين ، نحو بلال وخباب وصهيب وأبي ذر وابن مسعود وعمار ، كان كفار قريش يقولون : أنظروا إلى هؤلاء الذين تبعوا محمدا من موالينا وأراذلنا ، قال آلله تعالى : ﴿ إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين ، فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون ، إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون ﴾ فأخبر سبحانه أنه جزاهم على صبرهم ، كما قال تعالى : ﴿ وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون ﴾ قال الزجاج : أي أتصبرون على البلاء ، فقد عرفتهم ما وجد الصابرون قلت : قرن آلله سبحانه الفتنة بالصبر هٰهنا وفي قوله : ﴿ ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا ﴾ فليس لمن قد فتن بفتنة دواء مثل الصبر ، فإن صبر كانت الفتنة ممحصة له ومخلصة من الذنوب كما يخلص الكير خبث الذهب والفضة .

فالفتنة كير القلوب ، ومحك الإيمان وبها يتبين الصادق من الكاذب ، قال تعالى : ﴿ ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن آلله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ .

فالفتنة قسمت الناس ، إلى صادق وكاذب ، ومؤمن ومنافق ، وطيب وخبيث . فمن صبر عليها كانت رحمة في حقه ، ونجا بصبره من فتنة أعظم منها ، ومن لم يصبر عليها وقع في فتنة أشد منها . فالفتنة لابد منها في الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ يومهم على النار يفتنون ، ذوقوا فتنتكم هذا الذي كنتم به تستعجلون ﴾ . فالنار فتنة من لم يصبر على فتنة الدنيا ، قال تعالى في شجرة الزقوم : ﴿ إنا جعلناها فتنة للظالمين﴾ قال قتادة : لما ذكر آلله تعالى هذه الشجرة افتتن بها الظلمة ، فقالوا ، يكون في النار شجرة والنار تأكل الشجر ، فأنزل آلله تعالى : ﴿ إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم فأخبرهم أن غذاءها من النار ، أي غذيت بالنار .

قال ابن قتيبة : قد تكون شجرة الزقوم نبتا من النار ومن جوهر لا تأكله النار وكذلك سلاسل النار وأغلالها وأنكالها وعقاربها وحياتها ولو كانت على ما يعلم لم تبق على النار وإنما دلنا الله تعالى على الغائب عنده بالحاضر عندنا ، فالأسماء متفقة الدلالة ، والمعاني مختلفة ، وما في الجنة من ثمرها وفرشها وشجرها وجميع آلاتها على مثل ذلك .

وكذلك اخباره سبحانه وتعالى بأن عدة الملائكة الموكلين بالنار تسعة عشر ، كان فتنة للكفار ، حين قال عدو آلله أبو جهل : أيخوفكم محمد بتسعة عشر ، وأنتم الدهم ، أفيعجز كل مائة منكم أن يبطشوا بواحد منهم ، ثم تخرجون من النار ، فقال أبو الأسد : يا معشر قريش ، إذا كان يوم القيامة فأنا أمشي بين أيديكم على الصراط ، فأوقع عشرة بمنكبي الأيمن ، وتسعة بمنكبي الأيسر في النار ، ونمضي فندخل الجنة . فكان ذكر هذا العدد فتنة لهم

في الدنيا وفتنة لهم يوم القيامة . والكافر مفتون بالمؤمن في الدنيا ، كما إن المؤمن مفتون به ، ولهذا سأل المؤمنون ربهم أن لا يجعلهم فتنة للذين كفروا ، كما قال الحنفاء : ﴿ ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ، ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا ﴾ وقال أصحاب موسى عليه السلام : ﴿ ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ﴾ قال مجاهد : المعنى ، لا تعذبنا بأيديهم ، ولا بعذاب من عندك فيقولون : لو كان هؤلاء على الحق ما أصابهم هذا .

وقال الزجاج : معناه : لا تظهرهم علينا ، فيظنوا أنهم على حق فيفتنوا بذلك . وقال الفراء : لا تظهر علينا الكفار ، فيروا أنهم على حق وأنا على باطل . وقال مقاتل : لا تقتر علينا الرزق وتبسطه عليهم ، فيكون ذلك فتنة لهم .

وقد أخبر الله سبحانه أنه قد فتن كلا من الفريقين بالآخر فقال : ﴿ وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا ﴾ فقال الله تعالى : ﴿ أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴾ والمقصود أن الله سبحانه فتن أصحاب الشهوات بالصور الجميلة ، وفتن أولئك بهم . فكل من النوعين فتنة للآخر ، فمن صبر على تلك الفتنة نجا مما هو أعظم منها ، ومن أصابته تلك الفتنة سقط فيما هو شر منها ، فإن تدارك ذلك بالتوبة النصوح وإلا فبسبيل من هلك ، ولهذا قال النبي ﷺ « ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء » أو كما قال « فالعبد في هذه الدار مفتون بشهواته ، ونفسه الأمارة ، وشيطانه المغوي المزين ، وقرنائه ، وما يراه ويشاهده ، مما يعجز صبره عنه ، [1]

---

(١) قلت : وقد أحسن من قال

ست بليت بها والمستعاذ به ... من شرها من إليه الخلق يبتهل
نفسي وإبليس والدنيا التي فتنت ... من قبلنا والهوى والحرص والأمل
إن لم تكن منك يا مولاي واقية ... من شرها فلقد أعيت بنا الحيل



ويتفق مع ذلك ضعف الإيمان ، وضعف القلب ومرارة الصبر ، وذوق حلاوة العاجل ، وميل النفس إلى زهرة الحياة الدنيا ، وكون العوض مؤجلا في دار أخرى غير هذه الدار التي خلق فيها ، وفيها نشأ ، فهو مكلف ، بأن يترك شهواته الحاضرة المشاهدة لغيب طلب منه الإيمان به :

فوالله لولا الله يسعد عبده بتوفيقه ، والله بالعبد أرحم
لما ثبت الإيمان يوما بقلبه على هذه العلات والأمر أعظم
ولا طاوعته النفس في ترك شهوة مخافة نار جمرها يتضرم
ولا خاف يوما من مقام إلهه عليه بحكم القسط إذ ليس يظلم[٢]

الرحمة الحقيقيـــة

ومما ينبغي أن يعلم : أن الرحمة صفة تقتضي إيصال المنافع والمصالح إلى العبد ، وإن كرهتها نفسه وشقت عليها ، فهذه هي الرحمة الحقيقية . فارحم الناس بك من شق عليك في إيصال مصالحك ، ودفع المضار عنك .

فمن رحمة الأب بولده : أن يكرهه على التأدب بالعلم والعمل ، ويشق عليه في ذلك بالضرب وغيره ، ويمنعه شهواته التي تعود بضرره ، ومتى أهمل ذلك من ولده كان لقلة رحمته به ، وإن ظن أنه يرحمه ويرفهه ويريحه ، فهذه رحمة مقرونة بجهل ، كرحمة الأم .

ولهذا كان من تمام رحمة أرحم الراحمين تسليط أنواع البلاء على العبد ، فإنه أعلم بمصلحته ، فابتلاؤه له وامتحانه ومنعه من كثير من أغراضه وشهواته : من رحمته به ولكن العبد لجهله وظلمه يتهم ربه



(٢) من اغاثة اللهفان

بابتلائه ، ولا يعلم احسانه إليه بابتلائه وامتحانه . وقد جاء في الأثر : إن المبتلى إذا دعي له : اللهم ارحمه ، يقول الله سبحانه : كيف أرحمه من شيء به أرحمه : وفي أثر آخر : إن الله تعالى إذا أحب عبده حماه الدنيا وطيباتها وشهواتها كما يحمي أحدكم مريضه .

فهذا من تمام رحمته به ، لا من بخله عليه . كيف وهو الجواد الماجد ، الذي له الجود كله ، وجود الخلائق في جنب جوده أقل من ذرة في جبال الدنيا ورمالها .

فمن رحمته سبحانه بعباده : إبتلاؤهم بالأوامر والنواهي رحمة وحمية ، لا حاجة منه إليهم بما أمرهم به ، فهو الغني الحميد ولا بخلا منه عليهم بما نهاهم عنه ، فهو الجواد الكريم .

ومن رحمته : أن نغص عليهم الدنيا وكدرها لئلا يسكنوا إليها ، ولا يطمئنوا إليها ، ويرغبوا في النعيم المقيم في داره وجواره ، فساقهم إلى ذلك بسياط الإبتلاء والإمتحان ، فمنعهم ليعطيهم وابتلاهم ليعافيهم ، وأماتهم ليحييهم .

ومن رحمته بهم : أن حذرهم نفسه ، لئلا يغتروا به ، فيعاملوه بما لا تحسن معاملته به كما قال تعالى : ﴿ ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد ﴾ قال غير واحد من السلف : من رأفته بالعباد حذرهم من نفسه ، لئلا يغتروا به .[٣]

القواعد والأصول الثلاثة التي يرجع الدين كله إليها

الدين كله يرجع إلى هذه القواعد الثلاث : فعل المأمور ، وترك المحظور ، والصبر على المقدور .

(٣) من اغاثة اللهفان



وهذه الثلاثة هي التي أوصى بها لقمان لأبنه في قوله : يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وإنه عن المنكر واصبر على ما أصابك .

فأمره بالمعروف : يتناول فعله بنفسه وأمر غيره به ، وكذلك نهيه عن المنكر . أما من حيث إطلاق اللفظ ، فتدخل نفسه وغيره فيه ، وأما من حيث اللزوم الشرعي ، فإن الآمر الناهي لا يستقيم له أمره ونهيه ، حتى يكون أول مأمور ومنهي . وذكر سبحانه هذه الأصول الثلاثة في قوله : ﴿ إنما يتذكر أولو الألباب ، الذين يوفون بعهد آلله ولا ينقضون الميثاق ، والذين يصلون ما أمر آلله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ، والذين صبروا إبتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرأون بالحسنة السيئة أولائك لهم عقبى الدار ﴾ . فجمع لهم مقامات الإسلام والإيمان في هذه الأوصاف ، فوصفهم بالوفاء بعهده الذي عاهدهم عليه ، وذلك يعم أمره ونهيه الذي عهده إليهم ، بينهم وبينه ، وبينهم وبين خلقه . ثم أخبر عن استمرارهم بالوفاء به بأنهم لا يقع منهم نقضه . ثم وصفهم بأنهم يعملون ما أمر آلله به أن يوصل ، ويدخل في هذا ظاهر الدين وباطنه ، وحق آلله ، وحق خلقه ، فيصلون ما بينهم وبين ربهم بعبوديته وحده لا شريك له ، والقيام بطاعته ، والإنابة إليه والتوكل عليه ، وحبه وخوفه ورجائه ، والتوبة والإستكانة له ، والخضوع والذلة له ، والإعتراف له بنعمته ، وشكره عليها ، والإقرار بالخطيئة ، والإستغفار منها ، فهذه هي الوصلة بين الرب والعبد ، وقد أمر آلله بهذه الأسباب التي بينه وبين عبده أن توصل ، وأمر أن يوصل ما بيننا وبين رسوله ﷺ بالإيمان به ، وتصديقه وتحكيمه في كل شيء ، والرضا لحكمه ، والتسليم له ، وتقديم محبته على محبة النفس والولد والوالد والناس أجمعين صلوات آلله وسلامه عليه . فدخل في ذلك القيام بحقه وحق رسوله .



وأمر أن نصل ما بيننا وبين الوالدين والأقربين بالبر والصلة ، فإنه أمر بر الوالدين وصلة الأرحام وذلك مما أمر به أن يوصل وأمر أن نصل ما بيننا وبين الزوجات بالقيام بحقوقهن ومعاشرتهن بالمعروف ، وأمر أن نصل ما بيننا وبين الأرقاء بأن نطعمهم مما نأكل ، ونكسوهم مما نكتسي ، ولا نكلفهم فوق طاقتهم ، وأن نصل ما بيننا وبين الجار القريب والبعيد بمراعاة حقه ، وحفظه في نفسه وماله وأهله بما نحفظ به نفوسنا وأهلينا وأموالنا وأن نصل ما بيننا وبين الرفيق في السفر والحضر .

وأن نصل ما بيننا وبين الحفظة الكرام الكاتبين بأن نكرمهم ونستحي منهم كما يستحي الرجل من جليسه ومن هو معه ممن يجله ويكرمه فهذا كله مما أمر ٱلله به أن يوصل .

ثم وصفهم بالحامل لهم على هذه الصلة ، وهو خشيته وخوف سوء الحساب يوم المآب ولا يمكن أحدا قط أن يصل ما أمر ٱلله بوصله الا بخشيته ، ومتى ترحلت الخشية من القلب إنقطعت هذه الوصل .

ثم جمع لهم سبحانه ذلك كله في أصل واحد وهو أخية ذلك وقاعدته ومداره الذي يدور عليه وهو الصبر فقال : ﴿ والذين صبروا إبتغاء وجه ربهم ﴾ فلم يكتف منهم بمجرد الصبر حتى يكون خالصا لوجهه . ثم ذكر لهم ما يعينهم على الصبر وهو الصلاة فقال : ﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ وهذان هما العونان على مصالح الدنيا والآخرة وهما الصبر والصلاة فقال تعالى : ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ﴾ وقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن ٱلله مع الصابرين ﴾ .

ثم ذكر سبحانه إحسانهم إلى غيرهم بالإنفاق عليهم سرا وعلانية فأحسنوا إلى أنفسهم بالصبر والصلاة ، وإلى غيرهم بالإنفاق عليهم ثم ذكر حالهم اذا جهل عليهم وأوذو أنهم لا يقابلون ذلك بمثله بل يدرأون بالحسنة السيئة ،



فيحسنون إلى من يسيء إليهم فقال : ﴿ ويدرأون بالحسنة السيئة ﴾ وقد فسر هذا الدرء بأنهم يدفعون بالذنب الحسنة بعده كما قال تعالى : ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ وقال النبي ﷺ : « اتبع السيئة الحسنة بعدها تمحها » والتحقيق : أن الآية تعم النوعين والمقصود : أن هذه الآيات ، تناولت مقامات الإسلام والإيمان كلها ، واشتملت على فعل المأمور ، وترك المحظور ، والصبر على المقدور . وقد ذكر تعالى هذه الأصول الثلاثة في قوله : ﴿ بلى إن تصبروا وتتقوا ﴾ وقوله : ﴿ إنه من يتق ويصبر ﴾ وقوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ . فكل موضع قرن فيه التقوى بالصبر ، اشتمل على الأمور الثلاثة ، فإن حقيقة التقوى : فعل المأمور ، وترك المحظور .[1]

الانسان لا يستغني عن الصبر في حال من الأحوال

إن الإنسان لا يستغني عن الصبر في حال من الأحوال ، فإنه بين أمر يجب عليه امتثاله وتنفيذه ، ونهي يجب عليه اجتنابه وتركه ، وقدر يجري عليه اتفاقا ، ونعمة يجب شكر المنعم عليها ، واذا كانت هذه الأحوال لا تفارقه ، فالصبر لازم له إلى الممات ، وكل ما يلقى العبد في هذه الدار لا يخلو من نوعين : أحدهما : يوافق هواه ومراده ، والآخر مخالفه ، وهو محتاج إلى الصبر في كل منهما ، أما النوع الموافق لغرضه : فكالصحة والسلامة والجاه والمال وأنواع الملاذ المباحة ، وهو أحوج شيء إلى الصبر فيها من وجوه :

أحدها : أن لا يركن إليها ولا يغتر بها ولا تحمله على البطر والأشر والفرح المذموم الذي لايحب الله أهله .

---

(١) من عدة الصابرين .



الثاني : أن لا ينهمك في نيلها ويبالغ في استقصائها فإنها تنقلب إلى أضدادها ، فمن بالغ في الأكل والشرب والجماع إنقلب ذلك إلى ضده ، وحرم الأكل والشرب والجماع .

الثالث : أن يصبر على أداء حق ٱلله فيها ولا يضيعه فيسلبها .

الرابع : أن يصبر عن صرفها في الحرام فلا يمكن نفسه من كل ما تريده منها ، فإنها توقعه في الحرام ، فإن إحترز كل الإحتراز أوقعته في المكروه ، ولا يصبر على السراء إلا الصديقون ، وقال عبد الرحمن بن عوف رضي ٱلله عنه : إبتلينا بالضراء فصبرنا ، وابتلينا بالسراء فلم نصبر ، ولذلك حذر ٱلله عباده من فتنة المال والأزواج والأولاد فقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر ٱلله ﴾ وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم ﴾ وليس المراد من هذه العداوة ما يفهمه كثير من الناس ، أنها عداوة البغضاء والمحادة بل إنما هي عداوة المحبة الصادة للآباء عن الهجرة والجهاد وتعلم العلم والصدقة وغير ذلك من أمور الدين وأعمال البر كما في جامع الترمذي ، من حديث اسرائيل حدثنا سماك عن عكرمة عن بن عباس وسأله رجل عن هذه الآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم ﴾ قال : هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة فأرادوا أن يأتوا النبي ﷺ فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم أن يأتوا رسول ٱلله ﷺ فلما أتوا رسول الله ﷺ ورأوا الناس قد فقهوا في الدين هموا أن يعاقبوهم ، فأنزل ٱلله ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم ﴾ الآية قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

وما أكثر ما فات العبد من الكمال والفلاح بسبب زوجته وولده . وفي الحديث : الولد مبخلة مجبنة . وقال الإمام أحمد : حدثنا زيد بن الحباب قال حدثني زيد بن واقد قال حدثني عبد ٱلله بن بريدة قال سمعت أبي يقول : كان

رسول ٱللَّه ﷺ يخطبنا فجاء الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران ، فنزل رسول ٱللَّه ﷺ عن المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه ثم قال : « صدق ٱللَّه إنما أموالكم وأولادكم فتنة ، نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما . وهذا من كمال رحمته ﷺ ولطفه بالصغار وشفقته عليهم ، وهو تعليم منه للأمة الرحمة والشفقة واللطف بالصغار .

وإنما كان الصبر على السراء شديدا لأنه مقرون بالقدرة ، والجائع عند غيبة الطعام ، أقدر منه على الصبر عند حضوره ، وكذلك الشبق عند غيبة المرأة ، أصبر منه عند حضورها .[٢]

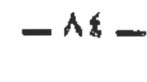
أشق الصبر على النفوس

مشقة الصبر بحسب قوة الداعي إلى الفعل وسهولته على العبد ، فإذا اجتمع في الفعل هذان الأمران كان الصبر عنه أشق شيء على الصابر ، وإن فقدا معا سهل الصبر عنه ، وإن وجد أحدهما وفقد الآخر سهل الصبر من وجه وصعب من وجه ، فمن لا داعي له إلى القتل والسرقة وشرب المسكر وأنواع الفواحش ولا هو مسهل ، فصبره عنه من أيسر شيء وأسهله ، ومن اشتد داعيه إلى ذلك وسهل عليه فعله فصبره عنه أشق شيء عليه ، ولهذا كان صبر السلطان عن الظلم ، وصبر الشاب عن الفاحشة ، وصبر الغني عن تناول اللذات والشهوات عند ٱللَّه بمكان .

وفي المسند وغيره عن النبي ﷺ : عجب ربك من شاب ليست له صبوة[١] ولذلك استحق السبعة المذكورون في الحديث الذين يظلهم ٱللَّه في ظل

(٢) من عدة الصابرين ، وإن أردت المزيد ، فعليك بالأصل فإنه مفيد .

(١) أي ميل إلى الهوى .





عرشه ، لكمال صبرهم ومشقته ، فإن صبر الإمام المتسلط على العدل في قسمه وحكمه ورضاه وغضبه ، وصبر الشاب على عبادة آلله ومخالفة هواه ، وصبر الرجل على ملازمة المسجد ، وصبر المتصدق على اخفاء الصدقة حتى عن بعضه ، وصبر المدعو إلى الفاحشة مع كمال جمال الداعي ومنصبه ، وصبر المتحابين في آلله على ذلك في حال اجتماعهما وافتراقهما ، وصبر الباكي من خشية آلله على كتمان ذلك واظهاره للناس من أشق الصبر ، ولهذا كانت عقوبة الشيخ الزاني والملك الكذاب والفقير المختال أشد العقوبات لسهولة الصبر عن هذه الأشياء المحرمات عليهم لضعف دواعيها في حقهم فكان تركهم الصبر عنها مع سهولته عليهم ، دليلا على تمردهم على آلله وعتوهم عليه ، ولهذا كان الصبر عن معاصي آللسان والفرج من أصعب أنواع الصبر لشدة الداعي إليهما وسهولتهما .

فإن معاصي اللسان ، فاكهة الإنسان ، كالنميمة والغيبة والكذب والمراء والثناء على النفس تعريضا وتصريحا ، وحكاية كلام الناس ، والطعن على من يبغضه ، ومدح من يحبه ونحو ذلك فتتفق قوة الداعي وتيسر حركة اللسان فيضعف الصبر . ولهذا قال ﷺ لمعاذ : « أمسك عليك لسانك : فقال : وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ، فقال : وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم » ، ولا سيما إذا صارت المعاصي اللسانية معتادة للعبد ، فإنه يعز عليه الصبر عنها ، ولهذا تجد الرجل يقوم الليل ويصوم النهار ، ويتورع من استناده إلى وسادة حرير لحظة واحدة ، ويطلق لسانه في الغيبة والنميمة والتفكه في أعراض الخلق ، وربما خص أهل الصلاح والعلم بآلله والدين والقول على آلله مالا يعلم ، وكثير ممن تجده يتورع عن الدقائق من الحرام والقطرة من الخمر ومثل رأس الإبرة من النجاسة ، ولا يبالي بارتكاب الفرج الحرام .

والمقصود : أن اختلاف شدة الصبر في أنواع المعاصي وآحادها يكون باختلاف داعيه إلى تلك المعصية في قوتها وضعفها ، ويذكر عن علي رضي آلله

عنه أنه قال : الصبر ثلاثة : صبر على المصيبة ، وصبر على الطاعة ، وصبر عن المعصية . فمن صبر على المصيبة حتى يردها بحسن عزائها كتب آلله له ثلاثمائة درجة ، ومن صبر على الطاعة حتى يؤديها كما أمر آلله كتب آلله له ستمائة درجة ، ومن صبر عن المعصية خوفا من آلله ورجاء ما عنده كتب آلله له تسعمائة درجة ، وقال ميمون بن مهران : الصبر صبران : فالصبر على المصيبة حسن ، وأفضل منه الصبر عن المعصية وقال الفضيل في قوله تعالى : ﴿ سلام عليكم بما صبرتم ﴾ قال : صبروا على ما أمروا به ، وصبروا عما نهوا عنه . وكأنه جعل الصبر على المصيبة داخلا في قسم المأمور به وآلله أعلم .[٢]

ذكر بعض ما ورد في الصبر من نصوص الكتاب العزيز

قال الإمام أحمد رحمه آلله : ذكر آلله سبحانه الصبر في القرآن في تسعين موضعا : إنتهى . وهي أنواع : منها تعليق الإمامة في الدين به وباليقين قال آلله تعالى : ﴿ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ﴾ فبالصبر واليقين ، تنال الإمامة في الدين ومنها : ضفرهم بمعية آلله سبحانه لهم قال تعالى : ﴿ إن آلله مع الصابرين ﴾ قال أبو علي الدقاق : فاز الصابرون بعز الدارين لأنهم نالوا من آلله معيته ، ومنها : أنه جمع للصابرين ثلاثة أمور لم يجمعها لغيرهم وهي الصلاة منه عليهم ، ورحمته لهم ، وهدايته إياهم ، قال تعالى : ﴿ وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولائك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولائك هم المهتدون ﴾ وقال بعض السلف وقد عزي على مصيبة نالته فقال : مالي لا أصبر وقد وعدني آلله على الصبر ثلاث خصال ، كل خصلة منها خير من الدنيا وما عليها ، ومنها أنه

---

(٢) من عدة الصابرين باختصار .

سبحانه أباح لهم أن يعاقبوا على ما عوقبوا به ثم أقسم قسما مؤكدا غاية التأكيد أن صبرهم خير لهم فقال : ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ﴾ فتأمل هذا التأكيد بالقسم المدلول عليه بالواو ثم باللام بعده ثم باللام التي في الجواب . ومنها أنه سبحانه حكم بالخسران حكما عاما على كل من لم يؤمن ولم يكن من أهل الحق والصبر ، وهذا يدل على أنه لا رابح سواهم فقال تعالى : ﴿ والعصر ، إن الإنسان لفي خسر، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ ولهذا قال الشافعي : لو فكر الناس كلهم في هذه السورة لوسعتهم وذلك أن العبد كما له في تكميل قوتيه، قوة العلم وقوة العمل وهما الإيمان والعمل الصالح وكما هو محتاج إلى تكميل نفسه فهو محتاج إلى تكميل غيره وهو التواصي بالحق والتواصي بالصبر وأخية ذلك وقاعدته وساقه الذي يقوم عليه إنما هو الصبر. ومنها أنه سبحانه خص أهل الميمنة بأنهم أهل الصبر والمرحمة الذين قامت بهم هاتان الخصلتان ووصوا بها غيرهم فقال تعالى : ﴿ ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة أولئك أصحاب الميمنة ﴾ وهذا حصر لأصحاب الميمنة فيمن قام به هذان الوصفان والناس بالنسبة إليها أربعة أقسام هؤلاء خير الأقسام، وشرهم من لا صبر له ولا رحمة فيه، ويليه من له صبر ولا رحمة عنده، ويليه القسم الرابع وهو من له رحمة ورقة ولكن لا صبر له.

ذكر بعض ما ورد في الصبر من نصوص السنة

في صحيح مسلم عن أم سلمة قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم



أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيرا منها ، إلا أخلف آلله له خيرا منها » ، قالت : فلما مات أبو سلمة قلت أي المسلمين خير من أبي سلمة أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ، ثم إني قلتها فأخلف الله لي رسول الله ﷺ فأرسل إلى رسول الله ﷺ حاطب بن أبي بلتعة يخطبني له، فقلت إن لي بنتا وأنا غيور، فقال : أما بنتها فادعو الله أن يغنيها عنها، وأدعو الله أن يذهب بالغيرة قالت : فتزوجت رسول الله ﷺ ، وعند أبي داود في هذا الحديث عنها قالت قال رسول الله ﷺ : « إذا أصابت أحدكم مصيبة فليقل : إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم عندك احتسبت مصيبتي فأجرني فيها وأبدلني خيرا منها» فلما احتضر أبو سلمة، قال : اللهم أخلفني في أهلي خيرا مني، فلما قبض قالت أم سلمة : أن لله وإنا إليه راجعون عند الله أحتسب مصيبتي.

فانظر عاقبة الصبر والأسترجاع ومتابعة الرسول والرضاء عن آلله إلى ما آلت وأنالت أم سلمة نكاح أكرم الخلق على آلله .

وفي جامع الترمذي ومسند الإمام أحمد وصحيح ابن حبان عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول آلله ﷺ : « إذا مات ولد العبد قال آلله لملائكته قبضتم ولد عبدي فيقولون نعم ، فيقول قبضتم ثمرة فؤاده ، فيقولون نعم ، فيقول ماذا قال عبدي فيقولون حمدك واسترجع ، فيقول : ابنوا لعبدي بيتا في الجنة وسموه بيت الحمد ، وفي صحيح البخاري من حديث أنس إن رسول آلله ﷺ قال : « إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه ثم صبر عوضته منهما الجنة » يريد عينيه ، وعند الترمذي في الحديث : « إذا أخذت كريمتي عبدي في الدنيا لم يكن له جزاء عندي إلا الجنة » وفي الترمذي أيضا عن أبي هريرة رضي آلله عنه قال : قال رسول آلله ﷺ : « يقول آلله عز وجل من أذهبت

حبيبتيه فصبر واحتسب لم أرض له ثوابا دون الجنة » وفي سنن أبي داود[1] من حديث عبد آلله بن عمر قال : قال رسول آلله ﷺ « لا يرضى آلله لعبده المؤمن إذا ذهب بصفيه من أهل الأرض واحتسبه بثواب دون الجنة » وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي آلله عنه قال : قال رسول آلله ﷺ « يقول آلله عز وجل ما لعبدي المؤمن جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة » وفي صحيحه أيضا عن عطاء بن أبي رباح قال : قال لي ابن عباس : ألا أريك إمرأة من أهل الجنة ، قلت : بلى قال : هذه المرأة السوداء ، أتت النبي ﷺ فقالت : يا رسول آلله إني أصرع وإني أتكشف فادع آلله لي ، قال : « إن شئت صبرت ولك الجنة ، وإن شئت دعوت الله أن يعافيك » فقالت : اصبر فقالت : إني أتكشف فادع الله أن لا أتكشف فدعا لها .

وفي الموطأ من حديث عطاء بن يسار أن رسول آلله ﷺ قال : إذا مرض العبد بعث آلله له ملكين فقال : أنظرا ماذا يقول لعواده فإن هو إذا جاؤوه حمد آلله وأثنى عليه رفعا ذلك إلى آلله وهو أعلم، فيقول إن لعبدي علي إن توفيته أن أدخله الجنة ، وإن أنا شفيته أن أبدله لحما خيرا من لحمه ودما خيرا من دمه وأن أكفر عنه سيئاته وفي صحيفة عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول آلله ﷺ : « إذا جمع آلله الخلائق نادى مناد أين أهل الصبر فيقوم ناس وهم قليل فينطلقون سراعا إلى الجنة فتلقاهم الملائكة فيقولون إنا نراكم سراعا إلى الجنة فمن أنتم فيقولون نحن أهل الفضل فيقولون ما كان فضلكم فيقولون كنا إذا ظلمنا صبرنا ، وإذا أسيء إلينا غفرنا ، وإذا جهل علينا حلمنا ، فيقال لهم ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين . » وفي الصحيحين أن رسول آلله ﷺ قسم مالا ، فقال بعض الناس ، هذه قسمة من أريد بها

---

(١) في هامش الأصل : وفي نسخة : وفي سنن النسائي .



وجه آلله فأخبر بذلك رسول آلله فقال : « رحم آلله موسى قد أوذي بأكثر من ذلك فصبر » وفي الصحيحين من حديث الزهري عن عروة عن عائشة رضي آلله عنها قالت : قال رسول آلله ﷺ : « ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفر آلله بها عنه حتى الشوكة يشاكها» وفيهما أيضا من حديث أبي سعيد وأبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر آلله بها من خطاياه » وفي صحيح مسلم من حديث عائشة عن النبي ﷺ أنه قال : « لا يصيب المؤمن من شوكة فما فوقها إلا رفعه آلله بها درجة ، وحط عنه بها خطيئة » وفي المسند من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « لا يزال البلاء بالمؤمن أو المؤمنة في جسده وفي ماله وفي ولده حتى يلقيآلله وما عليه خطيئة » وفي الصحيح من حديث سعد بن أبي وقاص رضي آلله عنه قال : قلت يا رسول آلله أي الناس أشد بلاء قال : « الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه صلابة ، زيد في بلائه وإن كان في دينه رقة خفف عنه ، وما يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشي على الأرض وليس عليه خطيئة » وفي الصحيحين عن عبد آلله بن مسعود رضي آلله عنه قال : دخلت على النبي ﷺ وهو يوعك وعكا شديدا قال : فقلت يا رسول آلله إنك لتوعك وعكا شديدا قال : « أجل إني لأوعك كما يوعك رجلان منكم » قلت إن لك لأجرين قال « نعم والذي نفسي بيده ما على الأرض مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه إلا حط آلله عنه به خطاياه كما تحط الشجرة اليابسة ورقها .

وفي الصحيحين أيضا من حديث عائشة رضي آلله عنها قالت : ما رأيت الوجع أشد منه على رسول آلله ﷺ . وفي بعض المسانيد مرفوعا إن الرجل لتكون له الدرجة عند آلله لا يبلغها بعمل حتى يبتلى ببلاء في جسمه فيبلغها



بذلك ، وفي الصحيح من حديث أسامة بن زيد قال : أرسلت بنت النبي ﷺ إليه أن إبنا لي إحتضر فأتنا فأرسل يقرؤها السلام ويقول : « إن لله ما أخذ وله ما أعطى وكل شيء عنده بأجل مسمى فالتصبر والتحتسب» ، فارسلت إليه تقسم عليه ليأتينها فقام ومعه سعد بن عبادة ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وزيد بن ثابت ورجال ، فرفع الصبي إلى رسول آلله ﷺ فأقعده في حجره ونفسه تقعقع كأنها شن فغاضت عيناه ، فقال سعد يا رسول آلله ما هذا قال : « هذه رحمة جعلها آلله في قلوب من يشاء من عباده وإنما يرحم آلله من عباده الرحماء » .

وفي سنن النسائي عن بن عباس قال : احتضرت بنت لرسول آلله ﷺ صغيرة فأخذها رسول آلله ﷺ وضمها إلى صدره ثم وضع يده عليها[1] فقضت وهي بين يدي رسول آلله ﷺ فبكت أم أيمن ، فقلت لها أتبكين ورسول آلله ﷺ عندك فقالت مالي لا أبكي ورسول آلله ﷺ يبكي ، فقال رسول آلله ﷺ « إني لست أبكي[2] ولكنها رحمة » ثم قال رسول آلله ﷺ : « المؤمن بخير على كل حال تنزع نفسه من بين جنبيه وهو يحمد آلله عز وجل . » وفي صحيح البخاري من حديث أنس رضي آلله عنه قال : إشتكى إبن لأبي طلحة فمات وأبو طلحة خارج ، فلما رأت إمرأته أنه قد مات هيأت شيئا وسجته في جانب البيت ، فلما جاء أبو طلحة قال : كيف الغلام ، قالت : قد هدأت نفسه وأرجو أن يكون قد استراح ، فظن أبو طلحة أنها صادقة قالت فباتت معه فلما أصبح اغتسل فلما أراد أن يخرج ،

(١) فقضت .

(٢) المراد : إن البكاء بلا صوت رحمة ، وبصوت منكر ، ففرق بين بكائي وبكائك فلا يأخذ حكم أحدهما من الآخر إهـ من حاشية السندي على النسائي .



أعلمته أنه قد مات ، فصلى مع رسول آلله ثم أخبره بما كان منهما فقال رسول آلله ﷺ : « لعل آلله أن يبارك لكما في ليلتكما » قال بن عيينة ، فقال رجل من الأنصار فرأيت له تسعة أولاد كلهم قد قرأوا القرآن ، وفي موطأ مالك عن القاسم بن محمد قال هلكت إمرأة لي فأتاني محمد بن كعب القرظي يعزيني بها فقال : إنه قد كان في بني اسرائيل رجل فقيه عابد عالم مجتهد ، وكانت له إمرأة وكان بها معجبا فماتت ، فوجد عليها وجدا شديدا ، حتى خلى في بيت وأغلق على نفسه واحتجب من الناس فلم يكن يدخل عليه أحد ، ثم إن إمرأة من بني اسرائيل سمعت به فجائته ، فقالت : إن لي إليه حاجة ، أستفتيه فيها ليس يجزيني إلا أن أشافهه بها ، فذهب الناس ولزمت الباب ، فأخبر ، فأذن لها فقالت : استفتيك في أمر قال : وما هو قالت : إني استعرت من جارية حليا فكنت ألبسه وأعيره زمانا ، ثم إنهم أرسلوا إلى فيه أفأرده إليهم قال نعم وآلله ، قالت إنه مكث عندي زمانا ، فقال ذلك أحق لردك إياه ، فقالت له يرحمك آلله أفتأسف على ما أعارك آلله ثم أخذ منك وهو أحق به منك ، فأبصر ما كان فيه ونفعه آلله بقولها . وفي جامع الترمذي عن شيخ من بني مرة : قال قدمت الكوفة فأخبرت عن بلال بن أبي بردة فقلت إن فيه لمعتبرا ، فأتيته وهو محبوس في داره التي كان بنى وإذا كل شيء منه قد تغير من العذاب والضرب ، وإذا هو في قشاش فقلت له الحمد لله يا بلال لقد رأيتك تمر بنا وأنت تمسك أنفك من غير غبار ، وأنت في حالتك هذه ، فكيف صبرك اليوم ، فقال : ممن أنت ، قلت : من بني مرة بن عباد ، قال : ألا أحدثك حديثا عسى آلله أن ينفعك به قال : هات ، قال حدثني أبو بردة عن أبي موسى أن رسول آلله ﷺ قال : « لا يصيب عبدا نكبة فما فوقها أو دونها إلا بذنب وما يعفوا آلله عنه أكثر » قال وقرأ : ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير ﴾ . وفي الصحيحين من

حديث عبد آلله بن مسعود رضي آلله عنه قال : كأني أنظر إلى رسول آلله ﷺ يحكي أن نبيا من الأنبياء ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول : اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون ، فتضمنت هذه الدعوة العفو عنهم والدعاء لهم ، والإعتذار عنهم ، والإستعطاف بقوله لقومي . وفي الموطأ من حديث يحيى بن وثاب عن شيخ من أصحاب رسول آلله ﷺ قال : قال رسول آلله ﷺ : « ليعز المسلمين في مصائبهم المصيبة بي » . وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري رضي آلله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « ما أعطي أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر » . وفي بعض المسانيد عنه ﷺ أنه قال قال آلله عز وجل أذا وجهت إلى عبد من عبيدي مصيبة في بدنه أو ماله أو ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزانا أو أنشر له ديوانا . وفي جامع الترمذي عنه ﷺ : « إذا أحب آلله قوما إبتلاهم فمن رضي فله الرضى ، ومن سخط فله السخط » وفي بعض المسانيد عنه ﷺ : إذا أراد آلله بعبد خيرا صب عليه البلاء صبا ، وفي صحيح مسلم من حديث جابر بن عبد آلله رضي آلله عنه أن رسول آلله ﷺ دخل على إمرأة فقال : « مالك ترفرين » قالت : الحمى لا بارك آلله فيها قال : « لا تسبي الحمى فإنها تذهب خطايا بني آدم كما يذهب الكير خبث الحديد » وقال مسروق عن عائشة رضي آلله عنها ، ما رأيت أحدا أشد وجعا من رسول آلله ﷺ كان يشدد عليه إذا مرض حتى إنه لربما مكث خمس عشرة لا ينام وكان يأخذه عرق الكلية وهو الخاصرة فقلنا يا رسول آلله لو دعوت آلله فيكشف عنك قال : « إنا معاشر الأنبياء يشدد علينا الوجع ليكفر عنا » . وفي المسند و النسائي من حديث أبي سعيد قال : قال رجل يا رسول آلله : أرأيت هذه الأمراض التي تصيبنا مالنا بها قال : « كفارات » فقال أبي بن كعب : يا رسول آلله وإن قلّت قال : « شوكة فما فوقها »



قال : فدعا أبي على نفسه عند ذلك أن لا يفارقه الوعك حتى يموت ولا يشغله عن حج ولا عمرة ولا جهاد في سبيل آلله وصلاة مكتوبة في جماعة قال : فما مس رجل جلده بعدها إلا وجد حرها حتى مات . وذكر بن أبي الدنيا عن سهل بن أنس الجهني عن أبيه عن جده قال دخلت على أبي الدرداء في مرضه فقلت : يا أبا درداء نحب أن نصح ولا نمرض فقال أبو الدرداء : سمعت رسول آلله ﷺ يقول : « إن الصداع والمليلة لا يزالان بالمؤمن وإن كان ذنبه مثل أحد حتى لا يدعان عليه من ذنبه مثقال حبة من خردل » : المليلة فعيلة من التململ ، واصلها من الملة التي يخبز فيها ، وقالت أم سليم مرضت فعادني رسول آلله ﷺ فقال : « يا أم سليم أتعرفين النار والحديد وخبث الحديد » قلت : نعم يا رسول آلله قال : « إبشري يا أم سليم فإنك إن تخلصي من وجعك هذا تخلصي منه كما يخلص الحديد من النار من خبثه » وخرج بعض الصحابة زائرا لرجل من إخوانه فبلغه أنه شاك قبل أن يدخل عليه فقال : اتيتك زائرا وأتيتك عائدا ومبشرا ، قال : كيف جمعت هذا قال : خرجت وأنا أريد زيارتك فبلغني شكاتك فصارت عيادة ، وأبشرك بشيء سمعته من رسول آلله ﷺ قال : « إذا سبقت للعبد من آلله منزلة لم يبلغها أو قال لم ينلها بعمله إبتلاه آلله في جسده أو في ولده أو في ماله ثم صبره حتى يبلغه المنزلة التي سبقت له من آلله عز وجل » .

وقال الحسن : وذكر الوجع أما والله ما هو بشر أيام المسلم أيام نورت له فيها مراحله وذكر فيها ما نسي من معاده وكفر بها عنه من خطاياه . وقال بعض السلف : لولا مصائب الدنيا وردنا الآخرة مفاليس . وقال أنس بن مالك رضي آلله عنه : إنتهى رسول آلله ﷺ إلى شجرة فهزها حتى سقط من ورقها ما شاء آلله ثم قال : « المصائب والأوجاع في إحباط ذنوب أمتي أسرع مني في هذه الشجرة » .



وذكر بن أبي الدنيا عن أبي هريرة يرفعه : ما من مسلم[1] إلا وكل ٱلله به ملكين من ملائكته لا يفارقانه حتى يقضي ٱلله بأمره باحدى الحسنيين إما بموت وإما بحياة ، فإذا قال له العواد كيف تجدك قال : أحمد ٱلله أجدني وٱلله المحمود بخير ، قال له الملكان ، إبشر بدم هو خير من دمك ، وصحة هي خير من صحتك ، وإن قال أجدني مجهودا في بلاء شديد ، قال له الملكان ، أبشر بدم هو شر من دمك وببلاء أطول من بلائك ، ولا يناقض هذا قول النبي ﷺ في وجعه وارأساه ، وقول سعد : يا رسول ٱلله قد اشتد بي الوجع وأنا ذو مال ، وقول عائشة : وارأساه ، فإن هذا إنما قيل على وجه الإخبار لا على وجه شكوى الرب تعالى إلى العواد ، فإذا حمد المريض ٱلله ثم أخبر بعلته لم يكن شكوى منه ، وإن أخبر بها تبرما وتسخطا كان شكوى منه ، فالكلمة الواحدة قد يثاب عليها ، وقد يعاقب بالنية والقصد . وقال ثابت البناني إنطلقنا مع الحسن إلى صفوان بن محرز نعوده ، فخرج علينا إبنه وقال هو مبطون لا تستطيعون أن تدخلوا عليه ، فقال الحسن إن أباك أن يؤخذ اليوم من لحمه ودمه فيؤجر فيه ، خير من أن يأكله التراب ، وقال ثابت أيضا دخلنا على ربيعة بن الحارث نعوده وهو ثقيل فقال : إنه من كان في مثل حالتي هذه ملأت الآخرة قلبه ، وكانت الدنيا أصغر في عينيه من ذباب ويذكر عن أنس عن النبي ﷺ قال : « إذا مرض العبد ثلاثة أيام خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » ويذكر عنه ﷺ « لا ترد دعوة المريض حتى يبرأ » .

وذكر بن أبي الدنيا عن بن مسعود رضي ٱلله عنه قال : كنت مع رسول ٱلله ﷺ جالسا فتبسم فقلنا : يا رسول ٱلله مم تبسمت ، قال : « تعجبا للمؤمن من جزعه من السقم ولو كان يعلم ما له في السقم أحب أن يكون سقيما حتى يلقى ٱلله » ، ثم تبسم ثانية ورفع رأسه إلى السماء قلنا : يا

(١) لعله سقط كلمة (يمرض) .

رسول آلله مما تبسمت ورفعت رأسك إلى السماء قال : « عجبت من ملكين نزلا من السماء يلتمسان عبدا مؤمنا كان في مصلاه يصلي فلم يجداه فعرجا إلى آلله فقالا يا رب عبدك فلان المؤمن كنا نكتب له من العمل في يوم وليلة كذا وكذا فوجدناه قد حبسته في حبالك فلم نكتب له شيئا من عمله فقال : اكتبوا لعبدي عمله الذي كان يعمله في يومه وليلته ولا تنقصوا منه شيئا فعليّ أجر ما حبسته وله أجر ما كان يعمل » . وعاد رجل من المهاجرين مريضا فقال إن للمريض أربعا : يرفع عنه القلم ، ويكتب له من الأجر مثل ما كان يعمل في صحته ، ويتبع المرض كل خطيئة من مفصل من مفاصله فيستخرجها ، فإن عاش عاش مغفورا له ، وإن مات مات مغفورا له[٢] فقال المريض : اللهم لا أزل مضطجعا ، وفي المسند عنه ﷺ « والذي نفسي بيده لا يقضي آلله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له ، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له ، وليس ذلك إلا للمؤمن » وفي لفظ : « إن أمر المؤمن كله عجيب إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له »[٣].

بعض الآثار الواردة عن الصحابة ومن بعدهم في فضيلة الصبر

قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع عن مالك بن مغول عن السفر قال : مرض أبو بكر رضي آلله عنه فعادوه فقالوا ألا تدعو لك الطبيب فقال : قد رآني الطبيب قالوا فأي شيء قال لك قال : إني فعال لما أريد ، وقال الإمام أحمد :

---

(٢) كذا في الأصل بدون ذكر الرابعة .

(٣) من عدة الصابرين باختصار .



حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن مجاهد قال : قال عمر بن الخطاب رضي آلله عنه : وجدنا خير عيشنا بالصبر وقال أيضا : أفضل عيش أدركناه بالصبر ، ولو أن الصبر كان من الرجال كان كريما ، وقال علي بن أبي طالب رضي آلله عنه : ألا إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، فإذا قطع الرأس بار الجسم ثم رفع صوته فقال : ألا أنه لا إيمان لمن لا صبر له ، وقال : الصبر مطية لا تكبوا . وكان بعض العارفين في جيبه رقعة يخرجها كل وقت فينظر فيها وفيها ﴿ واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ﴾ .

وقدم عروة بن الزبير على الوليد بن عبد الملك ومعه إبنه محمد وكان من أحسن الناس وجها فدخل يوما على الوليد في ثياب وشي وله غديرتان وهو يضرب بيده فقال الوليد : هكذا تكون فتيان قريش فعانه فخرج من عنده متوسنا[٤] فوقع في اصطبل الدواب ، فلم تزل الدواب تطأه بأرجلها حتى مات . ثم إن الآكلة وقعت في رجل عروة ، فبعث إليه الوليد الأطباء فقالوا إن لم تقطعها سرت إلى باقي الجسد فتهلك ، فعزم على قطعها ، فنشروها بالمنشار ، فلما صار المنشار إلى القصبة ، وضع رأسه على الوسادة ساعة فغشي عليه ، ثم أفاق والعرق يتحدر على وجهه وهو يهلل ويكبر ، فأخذها فجعل يقلبها في يده ، ثم قال : أما والذي حملني عليك ، إنه لعلم أني ما مشيت بك إلى حرام ولا إلى معصية ولا إلى ما لا يرضي آلله ، ثم أمر بها فغسلت وطيبت وكفنت في قطيفة ، ثم بعث بها إلى مقابر المسلمين ، فلما قدم من عند الوليد المدينة تلقاه اهل بيته واصدقاؤه يعزونه ، فجعل يقول : لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ، ولم يزد عليه ، ثم قال : لا أدخل المدينة إنما أنا بها بين شامت بنكبة ، أو حاسد لنعمة ، فمضى إلى قصر بالعقيق ، فأقام هناك ، فلما دخل قصره ، قال له عيسى بن طلحة ، لا أبا لشانيك ، أرني

(٤) لعله (وسنا) أي به أول النوم وهو سنة .



هذه المصيبة التي نعزيك عليها ، فكشف له عن ركبته ، فقال له عيسى : أما وآلله ما كنا نعدك للصراع ، قد أبقى آلله أكثرك ، عقلك ولسانك وبصرك ويداك واحدى رجليك ، فقال له : يا عيسى ما عزاني أحد مثل ما عزيتني به ، ولما أرادوا قطع رجله ، قالوا له : لو سقيناك شيئا كيلا تشعر بالوجع فقال : إنما إبتلاني ليرى صبري أفأعارض أمره ، وسئل إبنه هشام كيف كان أبوك يصنع برجله التي قطعت إذا توضأ ؟ قال : يمسح عليها .(٥)

وقال حسان بن أبي جبلة في قوله تعالى : ﴿ فصبر جميل ﴾ قال : لا شكوى فيه وقال مجاهد : فصبر جميل في غير جزع ، وقال عمرو بن قيس : فصبر جميل قال : الرضاء بالمصيبة والتسليم ، وقال بعض السلف : فصبر جميل لا شكوى فيه ، وقال همام عن قتادة في قوله تعالى : ﴿ وابيضت عيناه من الحزن فهو كضيم ﴾ قال : كضم على حزن فلم يقل الا خيرا ، وقال يحيى بن المختار عن الحسن : الكضيم الصبور ، وقال الحسن : ما جرعتين أحب الى آلله من جرعة مصيبة موجعة محزنة ردها صاحبها بحسن عزاء وصبر ، وجرعة غيظ ردها بحلم، وقال عبد الله بن المبارك : أخبرنا عبد الله بن لهيعة عن عطاء بن دينار ان سعيد بن جبير قال : الصبر ، اعتراف العبد لله بما أصابه منه ، واحتسابه عند آلله ، ورجاء ثوابه . وقد يجزع الرجل وهو يتجلد لا يرى منه الا الصبر .

فقوله : اعتراف العبد لله بما أصاب منه كأنه تفسير لقوله : إنا لله فيعترف أنه ملك لله يتصرف فيه مالكه بما يريد ، وقوله راجيا به ما عند آلله كأنه تفسير لقوله : وانا اليه راجعون ، أي نرد اليه فيجزينا على صبرنا ولا يضيع أجر المصيبة ، وقوله : وقد يجزع الرجل وهو يتجلد أي ليس الصبر بالتجلد ، وإنما

(٥) هذا المسح عملا بالمستحب، فإنه إذا لم يبق شيء من محل الفرض سقط وجوب الغسل والمسح وبقي استحباب مس العضو بالماء ، كما عمل عروة رضي آلله عنه .

هو حبس القلب عن التسخط على المقدور ، ورد اللسان عن الشكوى ، فمن تجلد وقلبه ساخط على القدر فليس بصابر ، وقال يونس بن يزيد : سألت ربيعة بن أبي عبد الرحمن ما منتهى الصبر ؟ قال : أن يكون يوم تصيبه المصيبة مثله قبل أن تصيبه وقال قيس بن الحجاج في قول آلله عز وجل : ﴿ فاصبر صبرا جميلا ﴾ قال : ان يكون صاحب المصيبة في القوم لا يعرف من هو ، وقال عمر بن دينار : قال عبيد بن عمير : ليس الجزع أن تدمع العين ، ويحزن القلب ، ولكن الجزع القول السيء والظن السيء ، وقال ابن أبي الدنيا حدثني الحسن بن عبد العزيز الحروري قال : مات ابن لي نفيس فقلت لأمه ، اتق آلله واحتسبيه واصبري فقالت : مصيبتى أعظم من أن أفسدها بالجزع وقد كره اسحاق بن راهويه : ان يترك لبس ما عادته لبسه ، وقال : هو من الجزع. وبالجملة : فعادتهم[1] أنهم لم يكونوا يغيرون شيئا من زيهم قبل المصيبة، ولا يتركون ما كانوا يعملون، فهذا كله مناف للصبر وآلله سبحانه أعلم[2].

فضيلة شكر آلله تعالى

أول وصية وصى آلله بها الانسان بعد ما عقل عنه ، بالشكر له وللوالدين فقال : ﴿ ووصينا الانسان بوالديه حملته امه وهنا على وهن وفصاله في عامين ان اشكر لي ولوالديك الى المصير ﴾ .

وأخبر أن رضاه في شكره فقال تعالى : ﴿ وان تشكروا يرضه لكم ﴾ وأثنى سبحانه على خليله إبراهيم بشكر نعمه فقال : ﴿ إن إبراهيم كان أمة

(١) ير السلف الصالح .

(٢) من عدة الصابرين باختصار .



قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين ، شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه الى صراط مستقيم ﴾ فأخبر عنه بأنه أمة أي قدوة يؤتم به في الخير وأنه قانتا لله ، والقانت : هو المطيع المقيم على طاعته والحنيف : هو المقبل على آلله المعرض عما سواه ، ثم ختم له بهذه الصفات بانه شاكر نعمه ، فجعل الشكر غاية خليله . وأخبر سبحانه وتعالى أن الشكر هو الغاية من خلقه وأمره بل هو الغاية التي خلق عبده لأجلها ﴿ وآلله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾ فهذه غاية الخلق وغاية الأمر فقال : ﴿ لقد نصركم آلله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا آلله لعلكم تشكرون ﴾ ويجوز أن يكون قوله لعلكم تشكرون تعليلا لقضائه لهم بالنصر ولأمره لهم بالتقوى ، ولهما معا ، وهو الظاهر ، فالشكر هو غاية الخلق والأمر ، وقد صرح سبحانه بأنه غاية أمره وارساله الرسول في قوله تعالى : ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلوا عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ، فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون ﴾ .

وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ انه قام حتى تفطرت قدماه فقيل له أتفعل هذا وقد غفر آلله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال : « أفلا أكون عبدا شكورا » . وثبت في المسند والترمذي ان النبي ﷺ قال لمعاذ : « وآلله إني لأحبك فلا تنس أن تقول في دبر كل صلاة : اللهم اعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » .

وقال ابن أبي الدنيا : حدثنا محمود بن غيلان حدثنا المؤمل بن اسماعيل حدثنا حماد بن سلمة حدثنا حميد الطويل عن طلق بن حبيب عن بن عباس رضي آلله عنهما أن رسول آلله ﷺ قال : « أربع من أعطيهن فقد أعطي خير الدنيا والآخرة : قلبا شاكرا ، ولسانا ذاكرا ، وبدنا على البلاء صابرا ، وزوجة

لا تبغيه خونا في نفسها ولا في ماله » . وذكر أيضا من حديث القاسم ابن محمد عن عائشة عن النبي ﷺ قال : « ما أنعم آلله على عبد نعمة فعلم أنها من عند آلله الا كتب آلله له شكرها ، وما علم آلله من عبد ندامة على ذنب الا غفر آلله له قبل أن يستغفره ، وأن الرجل يشتري الثوب بالدينار فيلبسه فيحمد آلله فما يبلغ ركبتيه حتى يغفر له » . وقد ثبت في صحيح مسلم عنه ﷺ أنه قال : « ان آلله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها» فكان هذا الجزاء العظيم الذي هو أكبر أنواع الجزاء كما قال تعالى : ﴿ ورضوان من آلله أكبر ﴾ ، في مقابلة شكره بالحمد . وذكر ابن ابي الدنيا من حديث عبد آلله بن صالح حدثنا أبو زهير يحيى بن عطارد القرشي عن أبيه قال : قال رسول آلله ﷺ : لا يرزق آلله عبدا الشكر فيحرمه الزيادة لأن آلله تبارك وتعالى يقول ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ » . وقال الحسن البصري : ان آلله يمتع بالنعمة ما شاء فاذا لم يشكر عليها قلبها عذابا ولهذا كانوا يسمون الشكر الحافظ فانه الذي يحفظ النعم الموجودة ، والجالب ، فانه الذي يجلب النعم المفقودة . وقال مطرف بن عبد آلله : لأن أعافى فأشكر ، أحب الي من أن أبتلى فأصبر وقال الحسن : أكثر ذكر هذه النعم فإن ذكرها شكر ، وقد أمر آلله تعالى نبيه ﷺ أن يحدث بنعمة ربه فقال : ﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ وآلله تعالى يحب من عبده أن يرى عليه أثر نعمته ، فان ذلك شكرها بلسان الحال ، وقال علي بن الجعد : سمعت سفيان الثوري يقول إن داوود عليه الصلاة والسلام قال : الحمد لله حمدا كما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله ، فأوحى آلله اليه يا داوود أتعبت الملائكة . وقال شعبة : حدثنا المفضل بن فضالة عن ابي رجاء العطاردي قال : خرج علينا عمران بن حصين وعليه مطرف خز لم نره عليه قبل ولا بعد ، فقال : ان رسول آلله ﷺ قال : « اذا أنعم آلله على عبد نعمة يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » وفي صحيفة عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ

قال : « كلوا واشربوا وتصدقوا في غير مخيلة ولا سرف ، فان آلله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » .

وقد ذم آلله سبحانه ، الكنود : وهو الذي لا يشكر نعمه . قال الحسن : ان الانسان لربه لكنود ، يعد المصائب وينس النعم . وقد أخبر النبي ﷺ : أن النساء أكثر أهل النار بهذا السبب قال : لو أحسنت الى احداهن الدهر ثم رأت منك شيئا ، قالت ما رأيت منك خيرا قط . فاذا كان هذا بترك شكر نعمة الزوج ، وهي في الحقيقة من آلله ، فكيف بمن ترك شكر نعمة آلله .

يا أيها الظالم في فعله والظلم مردود على من ظلم
الى متى أنت وحتى متى تشكوا المصيبات وتنسى النعم

ذكر ابن أبي الدنيا من حديث أبي عبد الرحمن السلمي عن الشعبي عن النعمان بن بشير قال : قال رسول آلله ﷺ : « التحدث بالنعمة شكر ، وتركها كفر ، ومن لا يشكر القليل لا يشكر الكثير ، ومن لا يشكر الناس لا يشكر آلله ، والجماعة بركة ، والفرقة عذاب » وقال مطرف بن عبد آلله : نظرت في العافية والشكر فوجدت فيهما خير الدنيا والآخرة ، ولأن أعافى فأشكر أحب الي من أن أبتلى فأصبر .

ورأى بكر بن عبد آلله المزني حمالا عليه حمله وهو يقول : الحمد لله ، استغفر آلله قال فانتظرته حتى وضع ما على ظهره ، وقلت له أما تحسن غير هذا قال : بلى أحسن خيرا كثيرا ، أقرأ كتاب آلله ، غير أن العبد بين نعمة وذنب ، فأحمد آلله على نعمه السابغة ، واستغفره لذنوبي ، فقلت : الحمال أفقه من بكر . وذكر الترمذي من حديث جابر بن عبد آلله رضي آلله عنهما قال : خرج رسول آلله ﷺ

على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمٰن من أولها الى آخرها فسكتوا ، فقال : قرأتها على الجن ليلة الجن ، فكانوا أحسن ردا منكم ، كنت كلما أتيت على قوله : ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ قالوا لا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد . وقال أحمد حدثنا عبد الرزاق بن عمران قال : سمعت وهبا يقول : وجدت في كتاب آل داوود : بعزتي أنه من اعتصم بي فان كادته السموات بمن فيهن والأرضون بمن فيهن فإني أجعل له من بين ذلك مخرجا ، ومن لم يعتصم بي فإني أقطع يديه من أسباب السماء وأخسف به من تحت قدميه الأرض فأجعله في الهواء ثم أكله إلى نفسه، كفى بي لعبدي ملاذا، واذا كان عبدي في طاعتي اعطيته قبل أن يسألني ، وأجبته قبل أن يدعوني ، وإني أعلم بحاجته التي ترفق به من نفسه . وكان الحسن اذا ابتدأ حديثه يقول : الحمد لله اللهم ربنا لك الحمد بالاسلام والقرآن ، ولك الحمد بالأهل والمال والمعافات ، كبت عدونا ، وبسطت رزقنا ، وأظهرت أمننا ، وجمعت فرقتنا ، وأحسنت معافاتنا ، ومن كل ما سألناك ربنا أعطيتنا ، فلك الحمد على ذلك حمدا كثيرا ، لك الحمد بكل نعمة أنعمت بها علينا في قديم أو حديث أو سر أو علانية أو خاصة أو عامة أو حي أو ميت أو شاهد أو غائب ، لك الحمد حتى ترضى ، ولك الحمد اذا رضيت . وقال ابن أبي الدنيا : أنشدني محمود الوراق :

اذا كان شكري نعمة ٱلله نعمة ... علي له في مثلها يجب الشكر
فكيف بلوغ الشكر الا بفضله ... وان طالت الأيام واتصل العمر
اذا مس بالسراء عم سرورها ... وان مس بالضراء أعقبها الأجر
وما منهما الا له فيه منة ... تضيق بها الأوهام والبر والبحر

وقد روى أبو هريرة رضي ٱللّٰه عنه عن النبي ﷺ : « إذا أحب أحدكم أن يرى قدر نعمه ٱللّٰه عليه فلينظر الى من تحته ولا ينظر الى من هو فوقه » وقال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ واسبغ عليكم نعمة ظاهرة وباطنة ﴾ قال : لا اله الا ٱللّٰه وقال وهب : عبَدَ ٱللّٰه عابد خمسين عاما فأوحى ٱللّٰه اليه إني قد غفرت لك قال : أي رب وما تغفر لي ولم أذنب ، فأذن ٱللّٰه لعرق في عنقه يضرب عليه فلم ينم ولم يصلّ ثم سكن فنام ثم أتاه ملك فشكا اليه فقال : ما لقيت من ضربان العرق فقال الملك : إن ربك يقول : ان عبادتك خمسين سنة تعدل سكون العرق . وذكر ابن أبي الدنيا ان داوود قال : يا رب أخبرني ما أدنى نعمك علي ، فأوحى ٱللّٰه اليه يا داوود تنفس ، فتنفس قال : هذا أدنى نعمي عليك .

وبهذا يتبين معنى الحديث الذي رواه أبو داود من حديث زيد بن ثابت وابن عباس : ان ٱللّٰه لو عذب أهل سمواته وأهل أرضيه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ولو رحمهم لكانت رحمته خيرا لهم من أعمالهم والحديث الذي في الصحيح : لن ينجي أحدا منكم عمله قالوا ولا أنت يا رسول ٱللّٰه قال ولا أنا الا أن يتغمدني ٱللّٰه برحمة منه وفضل ، فان أعمال العباد لا توافي نعمة من نعم ٱللّٰه عليه .

وقال أبو المليح قال موسى يا رب ما أفضل الشكر قال : أن تشكرني على كل حال ، وقال بكر بن عبد ٱللّٰه قلت لأخ لي أوصني فقال ما أدري ما أقول غير أنه ينبغي لهذا العبد أن لا يفتر من الحمد والاستغفار فان ابن آدم بين نعمة وذنب ، ولا تصلح النعمة الا بالحمد والشكر ولا يصلح الذنب الا بالتوبة والاستغفار ، فأوسعني علما ما شئت . وروى الجريري عن أبي الورد عن الجلاح عن معاذ بن جبل

رضي آلله عنه أن رسول آلله ﷺ أتى على رجل وهو يقول : اللهم اني أسألك تمام النعمة فقال : « ابن آدم هل تدري ما تمام النعمة ؟ » قال يا رسول آلله دعوت دعوة أرجو بها الخير فقال : « ان تمام النعمة فوز من النار ودخول الجنة » . وقال : سهم بن سلمة حدثت أن الرجل اذا ذكر اسم آلله على أول طعامه وحمده على آخره لم يسأل عن نعيم ذلك الطعام .

وقال عبد آلله بن المبارك أخبرنا مثنى بن الصباح عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : سمعت رسول آلله ﷺ يقول : « خصلتان من كانتا فيه كتبه آلله صابرا شاكرا ، ومن لم يكونا فيه لم يكتبه آلله صابرا شاكرا ، من نظر في دينه الى من هو فوقه فاقتدى به ، ومن نظر في دنياه الى من هو دونه فحمد آلله على ما فضله به عليه ، كتبه آلله صابرا شاكرا ، ومن نظر في دينه الى من هو دونه ونظر في دنياه الى من هو فوقه فأسف على ما فاته منه لم يكتبه آلله صابرا شاكرا » . وبهذا الاسناد عن عبد آلله بن عمرو موقوفا عليه أربع خصال من كن فيه بنى آلله له بيتا في الجنة : من كان عصمة أمره : لا اله الا آلله ، واذا أصابته مصيبة قال : إنا لله وإنا اليه راجعون ، وإذا أعطي شيئا قال : الحمد لله ، وإذا أذنب قال : أستغفر آلله . وقال ابن أبي الدنيا بلغني عن بعض الحكماء قال لو لم يعذب آلله على معصيته ، لكان ينبغي أن لا يعصى لشكر نعمته .[1]

نوعان من الحقوق لله على العبد لا ينفك منهما

لله تبارك وتعالى على عبده نوعان من الحقوق لا ينفك مهما : أحدهما :

(١) من عدة الصابرين .



أمره ونهيه الذي هو محض حقه عليه . والثان : شكر نعمه التي أنعم بها عليه فهو سبحانه يطالبه بشكر نعمه وبالقيام بأمر مشهد الواجب عليه ، لا يزال يشهده تقصيره وتفريطه وأنه محتاج الى عفو آلله ومغفرته ، فان لم يتداركه بذلك هلك ، وكلما كان أفقه في دين آلله كان شهوده للواجب عليه أتم ، وشهوده لتقصيره أعظم . وليس الدين بمجرد ترك المحرمات الظاهرة ، بل بالقيام مع ذلك بالأوامر المحبوبة لله . وأكثر الديانيين لا يعبأون منها الا بما شاركهم فيه عموم الناس .

وأما الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة لله ورسوله وعباده ونصرة آلله ورسوله ودينه وكتابه ، فهذه الواجبات لا تخطر ببالهم فضلا عن أن يريدوا فعلها فضلا عن أن يفعلوها .

وأقل الناس دينا وأمقتهم الى آلله من ترك هذه الواجبات ، وان زهد في الدنيا جميعها . وقل أن ترى منهم من يحمر وجهه ويمعره لله ويغضب لحرماته ، ويبذل عرضه في نصرة دينه وأصحاب الكبائر أحسن حالا عند آلله من هؤلاء . وقد ذكر أبو عمر وغيره ، أن آلله تعالى أمر ملكا من الملائكة أن يخسف بقرية فقال : يا رب ان فيهم فلانا الزاهد العابد قال : به فابدأ أو أسمعني صوته إنه لم يتمعر وجهه في يوما قط .

وأما شهود النعمة ، فانه لا يدع له رؤية حسنة من حسناته أصلا ، ولو عمل أعمال الثقلين ، فان نعم آلله عليه سبحانه أكثر من أعماله وأدنى نعمة من نعمه تستنفد عمله . فينبغي للعبد أن لا يزال ينظر في حق آلله . فمشاهدة العبد النعمة والواجب لا تدع له حسنة يراها ولا يزال مزريا على نفسه ذامّا لها ، وما أقربه من الرحمة اذا أعطى هذين المشهدين حقهما . وآلله المستعان .[1]

---

(١) من عدة الصابرين .

حقيقة الصبر والشكر ، والتحقيق في أيهما أفضل

الصبر : هو حبس النفس عن الجزع ، واللسان عن التشكي ، والجوارح عن لطم الخدود وشق الثياب ونحوهما . وأما حقيقته : فهو خلق فاضل من أخلاق النفس يمتنع به من فعل ما يحسن ولا يجمل ، وهو قوة من قوى النفس التي بها صلاح شأنها ، وقوام أمرها .

وهو باعتبار متعلقه ثلاثة أقسام : صبر على الأوامر والطاعات حتى يؤديها ، وصبر عن المناهي والمخالفات حتى لا يقع فيها ، وصبر على الأقدار والأقضية حتى لا يتسخطها .

وأما الشكر : فقال في الصحاح : الشكر ، الثناء على المحسن بما أولاكه من المعروف .

وشكر العبد يدور على ثلاثة أركان لا يكون شكورا الا بمجموعها ، أحدهما : اعترافه بنعمة الله ، والثاني : الثناء عليه بها ، والثالث : الاستعانة بها على مرضاته .

والشكر : يتعلق بالقلب واللسان والجوارح : فالقلب للمعرفة والمحبة واللسان للثناء والحمد والجوارح لاستعمالها في طاعة المشكور وكفها عن معاصيه وقال الشاعر :

أفادتكم النعماء عندي ثلاثة ... يدي ولساني والضمير المحجبا

اذا عرف هذا : فكل من الصبر والشكر داخل في حقيقة الآخر لا يمكن وجوده الا به ، وانما يعبر عن أحدهما باسمه الخاص به باعتبار الأغلب عليه ، والأظهر منه . والا فحقيقة الشكر إنما يلتئم من الصبر والإرادة والفعل فان الشكر هو العمل بطاعة الله ، وترك معصيته ، والصبر أصل ذلك فالصبر على

الطاعة وعن المعصية هو عين الشكر[٢] وإذا كان الصبر مأمورا به ، فأداؤه هو الشكر .

والصبر والشكر : حالتان لازمتان للعبد في أمر الرب ونهيه وقضائه وقدره لا يستغني عنهما طرفة عين . والسؤال عن ايهما أفضل كالسؤال عن الحس والحركة أيهما أفضل ، وعن الطعام والشراب أيهما أفضل وعن خوف العبد ورجائه أيهما أفضل . فالمأمور : لا يؤدي الا بصبر وشكر ، والمحظور : لا يترك الا بصبر وشكر . وأما المقدور الذي يقدر على العبد من المصائب ، فمتى صبر عليه اندرج شكره في صبره كما يندرج صبر الشاكر في شكره .

ومما يوضح هذا : أن ٱلله سبحانه امتحن العبد بنفسه وهواه ، وأوجب عليه جهادهما في ٱلله ، فهو في كل وقت في مجاهدة نفسه حتى تأتي بالشكر المأمور به ، ويصبر عن الهوى المنهي عن طاعته فلا ينفك العبد عنها غنيا كان أو فقيرا ، معافى أو مبتلى .[٣]

---

(٢) حقق المؤلف هنا الفرق بينهما وأنهما متغايران غير ان بينهما تلازم لافتقار كل واحد منهما للآخر في وجود ماهيته فراجعه وتنبه .

(٣) انتهى باختصار وتصرف من عدة الصابرين . وقد ذكر المؤلف هنا الأدلة في مسألة الغني الشاكر ، والفقير الصابر أيهما أفضل ، وان التحقيق في ذلك ان يقال افضلهما اتقاهما لله ، فإن فرض استواؤهما في التقوى استويا في الفضل. وذكر أيضا أن كلا من الطائفتين، احتج بحال النبي ﷺ .
وأن التحقيق في ذلك هو أن ٱلله سبحانه وتعالى جمع له بين المقامين كليهما على اتم الوجوه . وكان سيد الأغنياء الشاكرين ، وسيد الفقراء الصابرين ، فحصل له من الصبر على الفقر ما لم يحصل لأحد سواه ، ومن الشكر على الغنى ما لم يحصل لغني سواه . فعليك بمراجعة ذلك .

الحكمة في خلق الغنى والفقر والمال

آلله سبحانه وتعالى خلق الغنى والفقر مطيتين للإبتلاء والإمتحان ، ولم ينزل المال لمجرد الإستمتاع به كما في المسند عنه ﷺ قال : « يقول آلله تعالى : إنا نزلنا المال لإقام الصلاة وايتاء الزكاة ، ولو كان لإبن آدم واد من مال لابتغى له ثانيا ، ولو كان له ثان لابتغى له ثالثا ، ولا يملأ جوف ابن آدم الا التراب » . فأخبر سبحانه أنه أنزل المال ليستعان به على إقامة حقه بالصلاة وإقامة حق عباده بالزكاة لا للإستمتاع والتلذذ كما تأكل الأنعام . فإذا زاد المال عن ذلك أو خرج عن هذين المقصودين فات الغرض والحكمة التي أنزل لها ، وكان التراب أولى به ، فرجع هو والجوف الذي امتلأ به عما خلق له من الإيمان والعلم والحكمة ، فإنه خلق لأن يكون وعاء لمعرفة ربه وخالقه والإيمان به ومحبته وذكره وأنزل عليه من المال ما يستعين به على ذلك ، فعطل الجاهل بآلله وبأمر آلله وبتوحيد آلله وبأسمائه وصفاته جوفه عما خلق له ، وملأه بمحبة المال الفاني الذاهب الذي هو ذاهب عن صاحبه أو بالعكس ، وجمعه والإستكثار منه ، ومع ذلك فلم يمتل بل ازداد فقرا وحرمانا الى ان امتلأ جوفه بالتراب الذي خلق منه فرجع الى مادته الترابية التي هو خلق منها هو وماله ، ولم تتكمل مادته بامتلاء جوفه من العلم والإيمان الذي بهما كماله وفلاحه وسعادته في معاشه ومعاده فالمال : إن لم ينفعه ضره ، فإن هذه الأمور وسائل لمقاصد يتوسل بها اليها في الخير والشر ، فان عطلت عن التوسل بها الى المقاصد والغايات المحمودة توسل بها الى أضدادها .

فأربح الناس : من جعلها وسائل الى آلله والدار الآخرة ، وذلك الذي ينفعه في معاشه ومعاده ، وأخسر الناس : من توسل بها الى هواه ونيل شهواته



واغراضه العاجلة ، فخسر الدنيا والآخرة ، فهذا لم يجعل الوسائل مقاصد ، ولو جعلها كذلك لكان خاسرا ، لكنه جعلها وسائل الى ضد ما جعلت له ، فهو بمثابة من توسل بأسباب اللذة الى أعظم الآلام وأدائها . فالأقسام أربعة لا خامس لها . أحدها : معطل الأسباب معرض عنها ، الثاني : مكب عليها واقف مع جمعها وتحصيلها ، الثالث : متوصل بها الى ما يضره ولا ينفعه في معاشه ومعاده ، فهؤلاء الثلاثة في الخسران ، الرابع : متوصل بها الى ما ينفعه فيي معاشه ومعاده وهو الرابح قال تعالى : ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون . أولائك الذين ليس لهم في الآخرة الا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون .[1] ﴾

---

(١) من عدة الصابرين ، وقد ذكر المؤلف رحمه الله الأقوال في معنى هذه الآية الكريمة ورجح قول الفراء وهو : من أراد بعمله من أهل القبلة ثواب الدنيا عجل له ثوابه ولم يبخس ثم ذكر آية الشورى ﴿ من كان يريد حرث الآخرة ﴾ وآية الاسراء ﴿ من كان يريد العاجلة ﴾ ثم قال : فهذه ثلاثة مواضع من القرآن يشبه بعضها بعضا ويصدق بعضها بعضا وتجتمع على معنى واحد وهو : ان من كانت الدنيا مراده ولها يعمل في غاية سعيه لم يكن له في الآخرة نصيب . ومن كانت الآخرة مراده ولها عمل وهي غاية سعيه فهي له . بقي أن يقال : فما حكم من يريد الدنيا والآخرة ، فإنه داخل تحت حكم الإرادتين فأيهما يلحق قيل : من هاهنا نشأ الإشكال وظن من ظن من المفسرين أن الآية في حق الكافر فإنه هو الذي يريد الدنيا دون الآخرة ، وهذا غير لازم طردا ولا ممكنا فإن بعض الكفار قد يريد الآخرة ، وبعض المسلمين قد لا يكون مراده الا الدنيا ، والله تعالى قد علق السعادة بإرادة الآخرة والشقاوة بإرادة الدنيا ، فإذا تجردت الإرادتان تجرد موجبها ومقتضاها ، وان اجتمعتا فحكم اجتماعهما حكم اجتماع البر والفجور والطاعة والمعصية والإيمان والشرك في العبد وقد قال تعالى لخير الخلق بعد الرسل : ﴿ منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ﴾ وهذا خطاب للذي شهدوا معه الوقعة ولم يكن فيهم منافق ، ولهذا قال عبد الله بن مسعود ما شعرت أن أحدا من أصحاب رسول الله ﷺ يريد الدنيا حتى كان يوم أحد ونزلت هذه الآية الخ . . . فراجعه فانه مفيد .



حقيقة الدنيا

قال آلله تعالى : ﴿ اعلموا انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من آلله ورضوان وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور ﴾ فأخبر سبحانه عن حقيقة الدنيا بما جعله مشاهدا لأولي الأبصار ، وأنها لعب ولهو ، تلهو بها النفوس ، وتلعب بها الأبدان ، واللهو واللعب لا حقيقة لهما ، وانهما مشغلة للنفس مضيعة للوقت ، يقطع بها الجاهلون العمر ، فيذهب ضائعا في غير شيء . ثم أخبر أنها زينة ، زينت للعيون وللنفوس ، فأخذت بالعيون والنفوس استحسانا ومحبة ، ولو باشرت القلوب معرفة حقيقتها ومآلها ومصيرها لأبغضتها ولأثرت عليها الآخرة ، ولما آثرتها على الآجل الدائم الذي هو خير وأبقى . قال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا المسعودي عن عمرو بن مرة عن إبراهيم عن علقمة عن عبد آلله رضي آلله عنه عن النبي ﷺ قال : مالي وللدنيا انما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب قال في ظل شجرة في يوم صائف ثم راح وتركها . وفي جامع الترمذي من حديث سهل بن سعد قال : قال رسول آلله ﷺ : « لو كانت الدنيا تزن عند آلله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء . قال الترمذي حديث صحيح . وفي صحيح مسلم من حديث المستورد بن شداد قال : قال رسول الله ﷺ: ما الدنيا في الآخرة الا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بما يرجع وأشار بالسبابة . وفي الترمذي من حديثه قال : كنت مع الركب الذين وقفوا مع رسول آلله ﷺ على السخلة الميتة فقال رسول آلله ﷺ : « أترون هذه هانت على أهلها حتى ألقوها » قالوا ومن هوانها القوها يا رسول آلله قال : « فالدنيا أهون على آلله من هذه على أهلها » .



وفي الترمذي أيضا من حديث أبي هريرة رضي آلله عنه قال : قال رسول آلله ﷺ : « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها الا ذكر آلله وما والاه وعالما أو متعلما » . والحديثان حسنان . وقال الإمام أحمد حدثنا هيثم بن خارجة أنبأنا اسماعيل بن عياش عن عبد آلله بن دينار النهراني قال : قال عيسى عليه السلام للحواريين : بحق أقول لكم ، إن حلاوة الدنيا مرارة الآخرة ، وان مرارة الدنيا حلاوة الآخرة وإن عباد آلله ليسوا بالمتنعمين . بحق أقول لكم إن شركم عملا عالم يحب الدنيا ويؤثرها على الآخرة ، انه لو يستطيع جعل الناس كلهم في عمله مثله ، وقال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن اسحاق قال أخبرني سعيد بن عبد العزيز عن مكحول قال : قال عيسى بن مريم : عليه السلام : يا معشر الحواريين أيكم يستطيع أن يبني على موج البحر دارا ، قالوا يا روح آلله ومن يقدر على ذلك قال : إياكم والدنيا فلا تتخذوها قرارا . وفي كتاب الزهد لأحمد أن عيسى بن مريم عليه السلام كان يقول : بحق أقول لكم ان أكل الخبز وشرب الماء العذب ونوما على المزابل مع الكلاب كثير لمن يريد أن يرث الفردوس . وفي المسند عنه ﷺ : « ان آلله ضرب طعام ابن آدم مثلا للدنيا وان قزّحه وملحه[٢] فلينظر الى ماذا يصير .

ثم أخبر سبحانه وتعالى عنها أنها يفاخر بعضنا بعضا بها فيطلبها ليفخر بها على صاحبه ، وهذا حال كل من طلب شيئا للمفاخرة من مال أو جاه أو قوة أو علم أو زهد . والمفاخرة نوعان : مذمومة ومحمودة ، فالمذمومة : مفاخرة أهل الدنيا بها . والمحمودة : أن يطلب المفاخرة في الآخرة ، فهذه من جنس المنافسة المأمور بها . وهي : أن الرجل ينفس على غيره بالشيء ويغار أن يناله

(٢) قال المجد ابن الأثير : قزّحه وملحه اي توبله من القزح وهو التابل الذي يطرح في القدر كالكمون والكزبرة . أي أن الطعام وإن تكلف الإنسان التنوق في صنعته وتطييبه فانه عائد الى حال يكره ويستقذر ، فكذلك الدنيا المحروص على عمارتها راجعة الى خراب وادبار .



دونه ويأنف من ذلك ويحمي أنفه له يقال : نفست عليه الشيء أنفسه نفاسة إذا ضننت به ولم تحب أن يصير إليه دونك . والتنافس تفاعل من ذلك كأن كل واحد من المتنافسين يريد أن يسبق صاحبه إليه .

وحقيقة المنافسة : الرغبة التامة والمبادرة والمسابقة الى الشيء النفيس ثم أخبر تعالى عنها أنها تكاثر في الأموال والأولاد ، فيحب كل واحد أن يكثر بني جنسه في ذلك ، ويفرح بأن يرى نفسه أكثر من غيره مالا وولدا ، وأن يقال فيه ذلك . وهذا من أعظم ما يلهي النفوس عن آلله والدار الآخرة . كما قال تعالى : ﴿ ألهاكم التكاثر ، حتى زرتم المقابر كلا سوف تعلمون ، ثم كلا سوف تعلمون ﴾ .

والتكاثر في كل شيء ، فكل من شغله وألهاه التكاثر بأمر من الأمور عن آلله والدار الآخرة ، فهو داخل في حكم هذه الآية .

فمن الناس : من يلهيه التكاثر بالمال . ومنهم من يلهيه التكاثر بالجاه أو بالعلم ، فيجمعه تكاثرا وتفاخرا ، وهذا أسوء حالا عند آلله ممن يكاثر بالمال والجاه ، فإنه جعل أسباب الآخرة للدنيا ، وصاحب المال والجاه استعمل أسباب الدنيا لها وكاثر بأسبابها .

ثم أخبر سبحانه عن مصير الدنيا وحقيقتها ، وأنها بمنزلة غيث أعجب الكفار نباته . والصحيح إن شاء آلله أن الكفار هم الكفار بآلله وذلك عرف القرآن حيث ذكروا بهذا النعت في كل موضع ، ولو أراد الزراع لذكرهم باسمهم الذي يعرفون به كما ذكرهم به في قوله يعجب الزراع ، وانما خص الكفار به ، لأنهم أشد إعجابا بالدنيا ، فانها دارهم التي لها يعملون ويكدحون ، فهم أشد إعجابا بزينتها وما فيها من المؤمنين ثم ذكر سبحانه عاقبة هذا النبات ، وهو إصفراره ويبسه ، وهذا آخر الدنيا ومصيرها ، ولو ملكها العبد من أولها الى آخرها فنهايتها ذلك ، فإذا كانت الآخرة انقلبت الدنيا واستحالت الى عذاب شديد أو مغفرة من آلله وحسن ثوابه وجزائه ، كما قال علي بن أبي طالب رضي

آلله عنه : الدنيا دار صدق لمن صدقها ، ودار عافيه لمن فهم عنها ، ومطلب نجح لمن سالم فيها ، مساجد أنبياء آلله ومهبط وحيه ومصلى ملائكته ، ومتجر أوليائه ، فيها اكتسبوا الرحمة ، وربحوا فيها العافية ، فمن ذا يذمها وقد آذنت ببينها ، ونعت نفسها وأهلها ، فتمثلت ببلائها ، وشوقت بسرورها الى السرور تخويفا وتحذيرا وترغيبا ، فذمها قوم غداة الندامة ، وحمدها آخرون ذكرتهم فذكروا ، ووعظتهم فاتعظوا ، فيا أيها الذام للدنيا المغتر بتغريرها ، متى استذمت اليك ، بل متى غرتك ، أبمنازل آبائك في الثرى ، أم بمضاجع أمهاتك في البلاء كم رأيت موروثا ، كم عللت بكفيك عليلا ، كم مرضت مريضا بيديك ، تبتغي له الشفاء ، وتستوصف له الأطباء ثم لم تنفعه شفاعتك ، ولم تسعفه طلبتك ، مثلت لك الدنيا غداة مصرعه مصرعك ، ومضجعه مضجعك ، ثم التفت الى المقابر فقال : يا أهل الغربة ، ويا أهل التربة ، أما الدور فسكنت وأما الأموال فقسمت ، وأما الأزواج فنكحت ، فهذا خبر ماعندنا فهاتوا خبر ما عندكم ، ثم التفت الينا فقال : أما لو أذن لهم لأخبروكم ، أن خير الزاد التقوى .

فالدنيا في الحقيقة لا تذم وانما يتوجه الذم الى فعل العبد فيها ، وهي قنطرة أو معبر الى الجنة أو الى النار ، ولكن لما غلبت عليها الشهوات والحظوظ والغفلة والاعراض عن آلله والدار الآخرة ، فصار هذا هو الغالب على أهلها وما فيها ، وهو الغالب على إسمها ، صار لها اسم الذم عند الاطلاق ، والا فهي مبنى الآخرة ومزرعتها ، ومنها زاد الجنة ، وفيها اكتسبت النفوس الايمان ومعرفة آلله ومحبته وذكره وابتغاء مرضاته ، وخير عيش ناله أهل الجنة في الجنة ، انما كان بما زرعوه فيها ، وكفى بها مدحا وفضلا لأولياء آلله فيها من قرة العيون ، وسرور القلوب ، وبهجة النفوس ولذة الأرواح ، والنعيم الذي لا يشبهه نعيم ، بذكره ومعرفته ومحبته وعبادته والتوكل عليه والانابة اليه والانس به والفرح بقربه

والتذلل له ، ولذة مناجاته والاقبال عليه والاشتغال به عمن سواه ، وفيها كلامه ووحيه وهداه وروحه الذي ألقاه من أمره فأخبر به من شاء من عباده .[1]

ولما وصف سبحانه حقيقة الدنيا وبين غايتها ونهايتها وانقلابها في الآخرة الى عذاب شديد ومغفرة من الله وثواب ، أمر عباده بالمسابقة والمبادرة الى ما هو خير وأبقى ، وان يؤثروه على الفاني المنقطع المشوب بالأنكاد والتنغيص فقال : ﴿ سابقوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ﴾ ثم أخبر أن ذلك فضله يؤتيه من يشاء فقال : ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ .[2]

من أضرار حب الدنيا السكر بحبها

السكر بحب الدنيا أعظم من السكر بشرب الخمر بكثير ، وصاحب هذا السكر لا يفيق منه الا في ظلمة اللحد ، ولو انكشف عنه غطاؤه في الدنيا لعلم ما كان فيه من السكر ، وانه أشد من سكر الخمر ، والدنيا تسحر العقول أعظم سحر . قال الامام أحمد حدثنا سيار حدثنا جعفر قال : سمعت مالك بن دينار يقول : اتقوا السحارة ، اتقوا السحارة ، فانها تسحر قلوب

(١) ثم ذكر المؤلف هنا أن ابن عقيل فضل هذا على نعيم الجنة ثم ذكر أن التحقيق أنه لا يصح التفضيل بين أمرين في دارين مختلفتين ثم قال : والايمان والطاعة في هذه الدار أفضل ما فيها ، ودخول الجنة والنظر الى وجه الله جل جلاله وسماع كلامه والفوز برضاه أفضل ما في الآخرة . فراجعه .

(٢) من عدة الصابرين .



العلماء ، وقال يحيى بن معاذ الرازي : الدنيا خمر الشيطان من سكر منها فلا يفيق الا في عسكر الموتى نادما بين الخاسرين وأقل ما في حبها ، انه يلهي عن حب آلله وذكره ، ومن ألهاه ماله عن ذكر آلله فهو من الخاسرين ، واذا لهى القلب عن ذكر آلله سكنه الشيطان وصرفه حيث أراد . ومن فقهه في الشر : أنه يرضيه ببعض أعمال الخير ليريه أنه يفعل فيها الخير ، وقد تعبد لها قلبه ، فأين يقع ما يفعله من البر مع تعبده لها ، وقد لعنه رسول آلله ﷺ ودعا عليه فقال : « لعن عبد الدينار والدرهم »[1] وقال : « تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم إن أعطي رضي وإن منع سخط » . وهذا تفسير منه ﷺ وبيان لعبودتها ، وقد عرضت الدنيا على النبي ﷺ بحذافيرها وتعرضت له فدفع في صدرها باليدين وردها على عقبيها ، ثم عرضت بعده على أصحابه وتعرضت لهم ، فمنهم من سلك سبيله ودفعها عنه ، وهم القليل ، ومنهم من استعرضها وقال ما فيك قالت في الحلال والشبهة والمكره والحرام فقالوا : هاتي حلالك ولا حاجة لنا فيما عداه فأخذوا حلالها ، ثم تعرضت لمن بعدهم فطلبوا حلالها فلم يجدوه ، فطلبوا مكروهها وشبهها فقالت : قد أخذه من قبلكم فقالوا : هاتي حرامك فأخذوه ، فطلبه من بعدهم فقالت : هو في أيدي الظلمة قد استأثروا به عليكم فتحيلوا على تحصيله منهم بالرغبة والرهبة فلا يمد فاجر يده الى شيء من الحرام الا وجد أفجر منه وأقوى قد سبقه اليه ، هذا وكلهم ضيوف وما بأيديهم عارية كما قال ابن مسعود رضي آلله عنه ما أصبح أحد في الدنيا الا ضيف وماله عارية ، فالضيف مرتحل والعارية مؤداة .[2]



(١) رواه الترمذي عي أبي هريرة وهو حسن .

(٢) من عدة الصابرين .





سفه من قدّم الدنيا على الآخرة

عاشق الدنيا ومحبها الذي يؤثرها على الآخرة من أسفه الخلق وأقلهم عقلا ، اذ آثر الخيال على الحقيقة ، والمنام على اليقظة ، والظل الزائل على النعيم الدائم ، والدار الفانية على الدار الباقية ، وباع حياة الأبد في أرغد عيش بحياة إنما هي أحلام نوم ، أو كظل زائل .

إن اللبيب بمثلها لا يخدع

كما نزل إعرابي بقوم فقدموا له طعاما فأكل ثم قام الى ظل خيمة فنام فاقتلعوا الخيمة ، فأصابته الشمس فانتبه وهو يقول :

وإن امرءا دنياه أكبر همه لمستمسك منها بحبل غرور

وكان بعض السلف يتمثل بهذا البيت :

يا أهل لذات دنيا لا بقاء لها إن اغترارا بظل زائل حمق

قال يونس به عبد الأعلى : ما شبهت الدنيا الا كرجل نام ، فرأى في منامه ما يكره وما يحب ، فبينما هو كذلك إنتبه ، وقال ابن أبي الدنيا : حدثني أبو على الطائي حدثنا عبد الرحمٰن البخاري عن ليث قال : رأى عيسى بن مريم عليه السلام ، الدنيا في صورة عجوز عليها من كل زينة فقال : كم تزوجتي قالت : لا أحصيهم قال : فكلهم مات عنك أو كلهم طلقك قالت : بل كلهم قتلته ، فقال : عيسى بؤسا لأزواجك الباقين كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين تهلكينهم واحدا واحدا ولا يكونوا معك على حذر .

أرى أشقياء الناس لا يسأمونها على انهم فيها عراة وجوع
أراها وان كانت تحب فإنها سحابة صيف عن قليل تقشع

أشبه الأشياء بالدنيا الظل تحسب له حقيقة ثابتة وهو في تقلص وانقباض فتتبعه لتدركه فلا تلحقه ، وأشبه الأشياء بها السراب يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجد شيئا ووجد آللّٰه عنده فوفاه حسابه وآللّٰه سريع الحساب .

وأشبه الأشياء بها المنام يرى فيه العبد ما يحب وما يكره فاذا استيقظ علم أن ذلك لا حقيقة له . قال ابن أبي الدنيا : حدثني محمد بن علي بن شقيق حدثنا إبراهيم بن الأشعث قال : سمعت الفضيل بن عياض قال : قال ابن عباس رضي آللّٰه عنهما : يؤتى بالدنيا يوم القيامة في صورة عجوز شمطاء زرقاء أنيابها بادية مشوّه خلقها فتشرف على الخلائق فيقال : تعرفون هذه فيقولون : نعوذ بآللّٰه من معرفة هذه فيقال : هذه الدنيا التي تشاجرتم عليها ، بها تقاطعتم الأرحام ، وبها تحاسدتم وتباغضتم واغتررتم ثم يقذف بها في جهنم فتنادي يا رب أين أتباعي وأشياعي فيقول آللّٰه عز وجل الحقوا بها أتباعها وأشياعها . قال ابن أبي الدنيا : وحدثني اسحاق بن اسماعيل حدثنا روح بن عبادة حدثنا عوف عن ابي العلاء قال : رأيت في النوم عجوزا كبيرة عليها من كل زينة الدنيا ، والناس عكوف عليها متعجبون ينظرون اليها ، فجئت فنظرت فتعجبت من نظرهم اليها واقبالهم عليها ، فقلت : لها ويلك من أنت قالت : أما تعرفني قلت : لا قالت : انا الدنيا قال : قلت أعوذ بآللّٰه من شرك قالت : فإن أحببت أن تعاذ من شري فابغض الدرهم .

وقال الحسن : ابن آدم لا تعلق قلبك بالدنيا فتعلقه بشر معلق ، اقطع حبالها ، وغلق أبوابها ، حسبك يا ابن آدم منها ما يبلغك المحل . وكان يقول : إن قوما اكرموا الدنيا فصلبتهم على الخشب ، فأهينوها فأهنى ما تكون اذا أهنتموها ، هيهات هيهات ذهبت الدنيا وبقيت الأعمال قلائد في الأعناق وقال



المسيح عليه السلام : لا تتخذوا الدنيا ربا فتتخذكم الدنيا عبيدا واعبروها ولا تعمروها ، واعلموا أن أصل كل خطيئة حب الدنيا ورب شهوة أورثت أهلها حزنا طويلا ، ما سكنت الدنيا في قلب عبد الا اعتاظ قلبه منها بثلاثة : شغل لا ينفك عناؤه ، وفقر لا يدرك غناؤه ، وأمل لا يدرك منتهاه ، الدنيا طالبة مطلوبة ، فطالب الآخرة تطلبه الدنيا حتى يستكمل فيها رزقه ، وطالب الدنيا تطلبه الآخرة حتى يجيء الموت فيأخذ بعنقه ، يا معشر الحواريين : ارضوا بدنيء الدنيا مع سلامة الدين ، كما رضي أهل الدنيا بدنيء الدين مع سلامة الدنيا . وقال الفضيل : تجيء الدنيا يوم القيامة تتبختر في زينتها ونضرتها فتقول : يا رب اجعلني لأحسن عبادك دارا فيقول : لا أرضاك له أنت لا شيء فكوني هباء منثورا .(٣)

مثل لإغترار الناس بالدنيا وضعف إيمانهم بالآخرة

قال ابن أبي الدنيا : حدثنا اسحاق بن اسماعيل حدثنا روح بن عبادة حدثنا هشام بن حسان عن الحسن قال : بلغني أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه : « إنما مثلي ومثلكم ومثل الدنيا كمثل قوم سلكوا مفازة غبراء حتى اذا لم يدروا ما سلكوا منها أكثر أم ما بقي أنفدوا الزاد وحسروا الظهر وبقوا بين ظهراني المفازة لا زاد ولا حمولة ، فأيقنوا بالهلكة فبينما هم كذلك إذ خرج عليهم رجل في حلة يقطر رأسه ، فقالوا : ان هذا قريب عهد بريف ، وما جاءكم هذا الا من قريب ، قال فلما انتهى اليهم قال : ياهؤلاء على ما أنتم قالوا : على ما ترى قال : أرأيتم ان هديتكم على ماء رواء ورياض خضر ما

(٣) من عدة الصابرين .

تجعلون لي قالوا : لا نعصيك شيئا قال : عهودكم ومواثيقكم بالله قال : فأعطوه عهودهم ومواثيقهم بالله لا يعصونه شيئا قال : فأوردهم ماء ورياضا خضرا قال : فمكث فيهم ما شاء الله، ثم قال : يا هؤلاء الرحيل قالوا : الى أين قال : الى ماء ليس كمائكم ورياض ليست كرياضكم قال : فقال جل القوم وهم أكثرهم : والله ما وجدنا هذا حتى ظننا أن لا نجده، وما نصنع بعيش هو خير من هذا قال : وقالت طائفة وهم أقلهم : ألم تعطوا هذا الرجل عهودكم ومواثيقكم بآلله لا تعصونه شيئا وقد صدقكم في أول حديثه فوآلله ليصدقنكم في آخره فراح بمن اتبعه وتخلف بقيتهم ، فبادرهم عدوهم ، فأصبحوا بين أسير وقتيل » .[1]

مثل مطابق لحقيقة الدنيا وأهلها

مثل رجل هيأ دارا وزينها ووضع فيها من جميع الآلآت ، ودعى الناس اليها ، فكلما دخل داخل أجلسه على فراش وطيء وقدم اليه طبقا من ذهب عليه لحم ووضع بين يديه أواني مفتخرة ، فيها من كل ما يحتاج اليه ، وأخدمه عبيده ومماليكه ، فعرف العاقل أن ذلك كله متاع صاحب الدار وملكه وعبيده ، فاستمتع بتلك الآلآت والضيافة مدة مقامه في الدار ، ولم يعلق قلبه بها ، ولا حدث نفسه بتملكها ، بل اعتمد مع صاحب الدار ما يعتمده الضيف يجلس حيث أجلسه ، ويأكل ما قدمه له ، ولا يسأل عما وراء ذلك اكتفاء منه بعلم صاحب الدار وكرمه وما يفعله مع ضيوفه ، فدخل الدار كريما وتمتع فيها كريما وفارقها كريما ، ورب الدار غير ذام له . وأما الأحمق فحدث نفسه بسكنى الدار ، وحوز تلك الآلآت الى ملكه وتصرفه فيها

---

(١) من عدة الصابرين



بحسب شهوته وارادته ، فتخير المجلس لنفسه ، وجعل ينقل تلك الآلآت إلى مكان في الدار يخبؤها فيه ، وكلما قدم اليه ربها شيئا أو آلة حدث نفسه بملكه واختصاصه به عن سائر الأضياف ورب الدار يشاهد ما يصنع ، وكرمه يمنعه من إخراجه من داره حتى اذا ظن أنه قد استبد بتلك الآلآت وملك الدار ، وتصرف فيها وفي آلآتها تصرف المالك الحقيقي واستوطنها واتخذها دارا له ، أرسل اليه مالكها عبيده فأخرجوه منها إخراجا عنيفا وسلبوه كلما هو فيه ولم يصحبه من تلك الآلآت شيء وحصل على مقت رب الدار له ، وافتضاحه عنده وبين مماليكه وحشمه وخدمه . فاليتأمل اللبيب هذا المثال حق التأمل فإنه مطابق للحقيقة وٱلله المستعان .

قال عبد ٱلله بن مسعود رضي ٱلله عنه كل أحد في هذه الدنيا ضيف وماله عارية ، فالضيف مرتحل والعارية مؤداة . وفي الصحيحين عن أنس بن مالك رضي ٱلله عنه قال : مات ابن لأبي طلحة من أم سليم فقالت لأهلها : لا تحدثوا أبا طلحة حتى أكون أنا أحدثه ، فجاء فقربت اليه عشاء فأكل وشرب قال : ثم تصنعت له أحسن ما كانت تصنع قبل ذلك فوقع بها ، فلما رأت أنه قد شبع وأصاب منها قالت يا أبا طلحة ، أرأيت لو أن قوما أعاروا عاريتهم أهل بيت ، فطلبوا عاريتهم ألهم أن يمنعوهم قال : لا قالت : فاحتسب ابنك قال : فغضب قال : تركتيني تلطخت ثم أخبرتني بابني فانطلق حتى أتى رسول ٱلله ﷺ فأخبره بما كان منها فقال رسول ٱلله ﷺ : « بارك ٱلله لكما في ليلتكما » وذكر الحديث .

مثل الإنسان ومثل ماله وعمله وعشيرته

مثل الانسان ومثل ماله وعمله وعشيرته ، مثل رجل له ثلاثة إخوة فقضي له



سفر بعيد طويل لابد له منه ، فدعا إخوته الثلاثة ، وقال : قد حضر ما ترون من هذا السفر الطويل ، وأحوج ما كنت اليكم الآن فقال أحدهم : أنا كنت أخاك الى هذه الحال ، ومن الآن فلست لك بأخ ولا صاحب وما عندي غير هذا ، فقال له لم تغن عني شيئا فقال : للآخر ما عندك فقال : كنت أخاك وصاحبك الى الآن وانا معك حتى أجهزك الى سفرك وتركب راحلتك ، ومن هنالك لست لك بصاحب فقال : له أنا محتاج الى مرافقتك في مسيري فقال : لا سبيل لك الى ذلك فقال : لم تغن عني شيئا فقال للثالث : ما عندك أنت فقال : كنت صاحبك في صحتك ومرضك وأنا صاحبك الآن وصاحبك اذا ركبت راحلتك وصاحبك في مسيرك ، فان سرت سرت معك ، وان نزلت نزلت معك ، واذا وصلت الى بلدك كنت صاحبك فيها لا أفارقك أبدا فقال : ان كنت لأهون الأصحاب علي وكنت أوثر عليك صاحبيك فليتني عرفت حقك وآثرتك عليهما . فالأول ماله والثاني أقاربه وعشيرته وأصحابه والثالث عمله .

وقد روي في هذا المثل بعينه حديث مرفوع لكنه لا يثبت رواه أبو جعفر العقيلي في كتاب الضعفاء من حديث ابن شهاب عن عروة عن عائشة وعن ابن المسيب عن عائشة مرفوعا وهو مثل صحيح في نفسه مطابق للواقع .(٢)

التحذير من الغفلة والإغترار بالحياة الدنيا ، والترغيب في المسارعة الى الأعمال الصالحة الموصلة الى النعيم في دار البقاء

فيا ساهيا في غمرة الجهل والهوى صريع الأماني عن قليل ستندم
أفق قد دنى الوقت الذي ليس بعده سوى جنة أو حر نار تضرم

(٢) من عدة الصابرين .



وبالسنة الغراء كن متمسكا ... هي العروة الوثقى التي ليس تفصم

تمسك بها مسك البخيل بماله ... وعضّ عليها بالنواجذ تسلم

ودع عنك ما قد أحدث الناس بعدها ... فمرتع هاتيك الحوادث أوخم

وهيء جوابا عندما تسمع الندى ... من ٱللّٰه يوم العرض ما ذا أجبتموا

به رسلي لما أتوكم فمن يكن ... أجاب سواهم سوف يخزى ويندم

وخذ من تقى الرحمن أعظم جنّة ... ليوم به تبدو عيانا جهنم

وينصب ذاك الجسر من فوق متنها ... فهاو ومخدوش وناج مسلّم

ويأتي إلٰه العالمين لوعده ... فيفصل ما بين العباد ويحكم

ويأخذ للمظلوم ربك حقه ... فيا بؤس عبد للخلائق يظلم

وينشر ديوان الحساب وتوضع الـ ... موازين بالقسط الذي ليس يظلم

فلا مجرم يخشى ظلامة ذرة ... ولا محسن من أجره ذاك يهضم

وتشهد أعضاء المسيء بما جنى ... كذاك على فيه المهيمن يختم

فيا ليت شعري كيف حالك عندما ... تطاير كتب العالمين وتقسم

أتأخذ باليمنى كتابك أم تكن ... بالأخرى وراء الظهر منك تسلّم

وتقرأ فيها كل شيء عملته ... فيشرق منك الوجه أو هو يظلم

تقول كتابي فاقرؤوه فانه ... يبشر بالفوز العظيم ويعلم

فإن تكن الأخرى فإنك قائل ... ألا ليتني لم أوته فهو مغرم

فبادر إذا ما دام في العمر فسحة ... وعدلك مقبول وصرفك قيم

وجد وسارع واغتنم زمن الصبا ... ففي زمن الإمكان تسعى وتغنم

وسر مسرعا فالسير خلفك مسرع ... وهيهات ما منه مفر ومهزم

فهن المنايا أي واد نزلته ... عليها القدوم أو عليك ستقدم

فحي على جنات عدن فإنها ... منازلك الأولى وفيها المخيم

ولكننا سبي العدو فهل ترى ... نعود إلى أوطاننا فنسلم



وقد زعموا أن الغريب إذا نأى ... وشطت به أوطانه فهو مؤلم

وأي اغتراب فوق غربتنا التي ... بها أضحت الأعداء فينا تحكم

وحي على روضاتها وخيامها ... وحي على عيش بها ليس يسأم

وحي على يوم المزيد فإنه ... لموعد أهل الحب حين يكرم

وحي على واد هنالك أفيح ... منابر من نور لمن هو مكرم

ومن حولها كثبان مسك مقاعد ... لمن دونهم هذا العطاء المفخم

يرون به الرحمٰن جل جلاله ... كرؤية بدر التمّ لا يتوهم

أو الشمس صحوا ليس من دون أفقها ... سحاب ولا غيم هناك يغيم

فبين هموا في عيشهم وسرورهم ... وأرزاقهم تجري عليهم وتقسم

اذا هم بنور ساطع قد بدا لهم ... وقد رفعوا أبصارهم فإذا هموا

بربهموا من فوقهم قائل لهم ... سلام عليكم طبتم ونعمتم

فبٱلله ما عذر إمريء هو مؤمن ... بهذا ولا يسعى له ويقدّم

ولكنما التوفيق بٱلله إنه ... يخص به من شاء فضلا وينعم

فقدم فدتك النفس نفسك إنها ... هي الثمن المبذول حين تسلم

وخض غمرات الموت وارق معارج ... المحبة في مرضاتهم تتسنم

فما ضفرت بالوصل نفس مهينة ... ولا فاز عبد بالبطالة ينعم

وإن تك قد عاقتك سعدى فقلبك ... المعنى رهين في يديها مسلم

وقد ساعدت بالوصل غيرك فالهوى ... لها منك والواشي بها يتنعم

فدعها وسل النفس عنها بجنة ... من العلم في روضاتها الحق يبسم

وقد ذللت منها القطوف فمن يرد ... جناها ينله كيف شاء ويطعم

وقد فتحت أبوابها وتزينت ... لخطابها فالحسن فيها مقسم

وقد طاب منها نزلها ونزيلها ... فطوبى لمن حلوا بها وتنعموا

أقام على أبوابها داعي الهدى ... هلموا إلى دار السعادة تغنموا



وقد غرس الرحمٰن فيها غراسه ... من الناس والرحمٰن بالخلق أعلم
فمن كان من غرس الإلٰه فإنه ... سعيد وإلّا فالشقـــاء محتم[1]



(١) من الميمية المشهورة .

خاتمة

يا من عزم على السفر الى الله والدار الآخرة ، قد رفع لك علم فشمر اليه فقد أمكن التشمير ، واجعل سيرك بين مطالعة منته ومشاهدة عيب النفس والعمل والتقصير ، فما أبقى مشهد النعمة والذنب للعارف من حسنة يقول هذه منجيتي من عذاب السعير ، ما المعول الا على عفوه ومغفرته فكل أحد اليها فقير ، أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي أنا المذنب المسكين وأنت الرحيم الغفور ، ما تساوي أعمالك لو سلمت مما يبطلها أدنى نعمة من نعمه عليك ، وأنت مرتهن بشكرها من حين أرسل بها اليك ، فهل رعيتها بالله حق رعايتها وهي في تصريفك وطوع يدك ، فتعلق بحبل الرجاء وادخل من باب التوبة والعمل الصالح انه غفور شكور ، نهج للعبد طريق النجاة وفتح له أبوابها ، وعرفه طرق تحصيل السعادة وأعطاه أسبابها ، وحذره من وبال معصيته وأشهده في نفسه وفي غيره شؤمها وعقابها ، وقال إن أطعت فبفضلي وأنا أشكر ، وان عصيت فبقضائي وأنا أغفر ، إن ربنا لغفور شكور ، أزاح عن العبد العلل ، وأمره أن يستعيذ به من العجز والكسل ، ووعده أن يشكر له القليل من العمل ، ويغفر له الكثير من الزلل ، ان ربنا لغفور شكور ، أعطاه ما يشكره عليه ، ثم يشكره على إحسانه الى نفسه لا على إحسانه اليه ووعده على احسانه لنفسه أن يحسن جزاءه ويقربه لديه ، وأن يغفر له خطاياه اذا تاب منها ولا يفضحه بين يديه ، ان ربنا لغفور شكور ، وثقت بعفوه هفوات المذنبين فوسعتها ، وعكفت بكرمه آمال المحسنين فما قطع طمعها ، وخرقت السبع الطباق دعوات التائبين والسائلين فسمعها ، ووسع الخلائق عفوه ومغفرته ورزقه فما من دابة في الأرض الا على الله رزقها ويعلم مستقرها

ومستودعها ، ان ربنا لغفور شكور ، يجود على عباده بالنوال قبل السؤال ، ويعطي سائله ومؤمله فوق ما تعلقت به منهم الآمال ، ويغفر لمن تاب اليه ولو بلغت ذنوبه عدد الأمواج والحصا والتراب والرمال ، ان ربنا لغفور شكور ، أرحم بعباده من الوالدة بولدها ، وأفرح بتوبة التائب من الفاقد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة اذا وجدها ، وأشكر للقليل من جميع خلقه فمن تقرب اليه بمثقال ذرة من الخير شكرها وحمدها ، ان ربنا لغفور شكور ، تعرف الى عباده بأسمائه وأوصافه ، وتحبب اليهم بحكمه وآلائه ، ولم تمنعه معاصيهم بأن جاد عليهم بآلائه ، ووعد من تاب اليه وأحسن طاعته بمغفرة ذنوبه يوم لقائه ، ان ربنا لغفور شكور ، السعادة كلها في طاعته ، والأرباح كلها في معاملته ، والمحن والبلايا في معصيته ومخالفته ، فليس للعبد أنفع من شكره ، وتوبته ، ان ربنا لغفور شكور ، أفاض على خلقه النعمة ، وكتب على نفسه الرحمة ، وضمن الكتاب الذي كتبه أن رحمته تغلب غضبه ، ان ربنا لغفور شكور ، يطاع فيشكر وطاعته من توفيقه وفضله ، ويعصى فيحلم ومعصية العبد من ظلمه وجهله ، ويتوب اليه فاعل القبيح فيغفر له حتى كأنه لم يكن قط من أهله ، ان ربنا لغفور شكور ، الحسنة عنده بعشرة أمثالها أو يضاعفها بلا عدد ولا حسبان ، والسيئة عنده بواحدة ومصيرها الى العفو والغفران ، وباب التوبة مفتوح لديه منذ خلق السموات والأرض الى آخر الزمان ، ان ربنا لغفور شكور ، بابه الكريم مناخ الآمال ومحط الأوزار ، وسماء عطاه لا تقلع عن الغيث بل هي مدرار ، ويمينه ملآ لا تغيضها نفقة سحاء الليل والنهار ، ان ربنا لغفور شكور ، لا يلقى وصاياه الا الصابرون ، ولا يفوز بعطاه الا الشاكرون ، ولا يهلك عليه الا الهالكون ، ولا يشقى بعذابه الا المتمردون ، ان ربنا لغفور شكور ، فاياك أيها المتمرد أن يأخذك على غرة فإنه غيور ، واذا أقمت على معصية وهو يمدك بنعمته فاحذره

فانه لم يهملك لكنه صبور ، وبشراك أيها التائب بمغفرته ورحمته أنه غفور شكور ، من علم أن الرب شكور تنوع في معاملته ، ومن عرف أنه واسع المغفرة تعلق بأذيال مغفرته ، ومن علم أن رحمته سبقت غضبه لم ييئس من رحمته ، ان ربنا لغفور شكور ، من تعلق بصفة من صفاته أخذته بيده حتى تدخله عليه ، ومن سار اليه بأسمائه الحسنى وصل اليه ، ومن أحبه أحب أسماءه وصفاته وكانت آثر شيء لديه ، حياة القلوب في معرفته ومحبته وكمال الجوارح في التقرب اليه بطاعته والقيام بخدمته ، والألسنة بذكره والثناء عليه بأوصاف مدحته ، فأهل شكره أهل زيادته ، وأهل ذكره أهل مجالسته ، وأهل طاعته أهل كرامته ، وأهل معصيته لا يقنطهم من رحمته ، إن تابوا فهو حبيبهم ، وان لم يتوبوا فهو طبيبهم ، يبتليهم بأنواع المصائب ، ليكفر عنهم الخطايا ويطهرهم من المعايب ، انه غفور شكور ، والحمد لله رب العالمين حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه كما يحب ربنا ويرضى وكما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله حمدا يملأ السموات والأرض وما بينهما وما شاء ربنا من شيء بعد بمجامع حمده كلها ما علمنا منها وما لم نعلم على نعمه كلها ما علمنا منها وما لم نعلم ، عدد ما حمده الحامدون ، وغفل عن ذكره الغافلون ، وعدد ما جرى به قلمه ، وأحصاه كتابه ، وأحاط به علمه . وصلى آلله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين ، وعلى سائر الأنبياء والمرسلين ، ورضي آلله عن التابعين لهم بإحسان الى يوم الدين .[1]

وبهذه الخاتمة الحسنة المفيدة ختمت ما أردت جمعه في هذا الكتاب وأنا الفقير الى آلله عبد الرحمن بن عبد العزيز بن محمد بن سحمان غفر آلله له ولوالديه ولجميع المسلمين ، وذلك في يوم الجمعة الموافق الخامس والعشرين من شهر ذي الحجة عام ثلاث وتسعين وثلاثمائة وألف من الهجرة النبوية ، وصلى آلله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا .

(١) آخر كتاب عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين .



الفهـــــرس

رقم الصفحة	الموضـــوع





الجديد
NEW & EXCLUSIVE


الجديد
NEW & EXCLUSIVE